الحجاب في التاريخ الإسلامي المبكر وعلاقته بالصورة النمطية المعاصرة للمرأة المسلمة

The Vail In Early Islamic History and its Relation to The Current Stereo Type of Modern Muslim Women

بكر يوسف زعرور

إشراف: د. نظمي الجعبة

قدِّمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير في برنامج التاريخ العربي والإسلامي من كلية الدراسات العليا – جامعة بيرزيت– فلسطين

2017م

الحجاب في التاريخ الإسلامي المبكر وعلاقته بالصورة النمطية المعاصرة للمرأة المسلمة

The Vail In Early Islamic History and its Relation to The Current Stereo Type of Modern Muslim Women

بكر يوسف زعرور 1065368

كانون أول 2017

لجنة الإشراف والمناقشة

د. نظمي الجعبة (رئيسا) _____

د. محسن يوسف (عضوا) _____

د. عامر بركات (عضوا) _____

قدِّمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير في برنامج التاريخ العربي والإسلامي من كلية الدراسات العليا – جامعة بيرزيت– فلسطين

2017م

الإهداء

إلى ديمة وهشام

لولاهما لم يكتمل هذا البحث

شكر

أتقدم بعظيم شكري إلى الدكتور نظمي الجعبة الذي قام بالإشراف على هذه الرسالة، لصبره وسعة صدره، ولملاحظاته الهامة والجوهرية التي أغنت البحث ومنحته قيمة اضافية. كما أتقدم بشكري للدكتور محسن يوسف وللدكتور عامر بركات عضوا لجنة المناقشة، ولكل الأساتذة في برنامج التاريخ العربي والإسلامي. كما أتقدم بامتناني لجامعة بير زيت الجامعة العريقة التي أتشرف بحمل شهادتها. ولا يفوتني شكر جميع الأصدقاء الذين واكبوا بحثي وساهموا بملاحظاتهم ومعرفتهم.

قائمة المحتويات

الملخّص.....و

Abstract.....ط

المقدمة.....ل

إشكالية البحث وفرضيته.....ن

أهمية البحث:.....ن

مصادر البحث.....س

منهجية البحث.....ر

الفصل الأول: المرأة العربية في صدر الإسلام..... 1

في معنى الحجاب:..... 1

لباس المرأة زمن الرسول..... 2

وضع المرأة وإمكانات التغيير في الرسالة الجديدة..... 4

المرأة العربية قبل الإسلام..... 9

المرأة في اليهودية..... 11

المرأة في المسيحية..... 14

المرأة في الإسلام..... 15

الحجاب في القرآن والسنة:..... 19

محنة فاطمة بنت محمد..... 24

إقصاء المرأة في هزيمة عائشة..... 27

خاتمة 31

الفصل الثاني: أثر الجواري والإماء في وضع المرأة 32

ملك اليمين 32

حروب الردة 35

الجواري في قصور الخلفاء 38

احتجاب المرأة الحرة في مرحلة ازدهار الإماء 45

خاتمة 49

الفصل الثالث: المرأة العربية المسلمة المعاصرة 50

الحملة الفرنسية 53

الحركة النسوية الغربية 55

عصر النهضة العربية 59

الاستعمار الغربي 64

الحركات الإسلامية ورمزية الحجاب 70

الإخوان المسلمون 72

الحركة الوهابية 76

أفكار حسن الترابي مؤسس الجبهة الإسلامية القومية في السودان 80

محمد شحرور والتجديد الثوري 81

الخاتمة 83

المراجع والمصادر 86

الملخّص

لعبت المرأة، في بداية الدعوة الإسلامية، دورا واضحا ومؤثرا. فقد كانت السيدة خديجة، زوجة الرسول الأولى والوحيدة خلال حياتها، الداعم الأقوى له. كما شاركت النساء الرجال في مواجهة العنف الذي تعرض له المسلمون في بداية الدعوة. ولم يكن هناك إشارة إلى ضرورة فصل المرأة عن الرجل في ممارسة العبادات، أو في اجتماعات المسلمين الأوائل مع الرسول. ولم يكن للحجاب ذكر في العلاقة بين النساء والرجال. كل ذلك في ظل وضع كانت فيه مكانة المرأة العربية في الجاهلية متدنية، وخاضعة لتحكم الرجال. فهل حافظ المسلمون، بعد انتشار الإسلام، على المكانة المتقدمة للمرأة في بداية الدعوة؟

مثلت النصوص القرآنية التي تتحدث عن المرأة تغييرا إيجابيا نوعيا، إذا ما قارنا النصوص القرآنية مع نصوص من العهد القديم مثلا. لكن وضع المرأة عاد إلى التراجع، خصوصا بعد الهجرة، ومع تشكل مجتمع تشغله معارك الدفاع عن وجوده.

هدف البحث إلى دراسة مسألة الحجاب، ودورها في إقصاء المرأة في العصور الإسلامية المختلفة، وصولا إلى المرأة العربية المسلمة المعاصرة. وتتبع التحولات التي طالت المرأة من خلال مفهوم الحجاب، وتوسعه ليطال لباس المرأة، وحضورها، ومكانتها، وصورتها المتخيلة والمنمطة.

جاء البحث في ثلاثة فصول. بحيث أظهر الفصل الأول مكانة المرأة المتقدمة في بداية الدعوة الإسلامية، ثم التراجعات المتتالية على هذه المكانة. لقد بين الفصل أن الحجاب لا علاقة له باللباس، بل هو حجب مادي ومعنوي للمرأة، كما هو معناه في اللغة وفي الآيات

السبع التي ذكر فيها. وبين البحث كيف أثرت القيم القديمة السائدة، التي حطت من مكانة المرأة، على الدعوة الجديدة، خصوصا بعد أن برزت أهمية الرجال المحاربين، بحيث دعمت أهميتهم بامتيازات تم تبريرها من خلال تفسيرات للنصوص، وروايات لأحداث وأحاديث تجعل من كل المرأة عورة. كما وضح الفصل كيف أثرت الصراعات السياسية بعد وفاة الرسول على وضع المرأة. تلك الصراعات التى شاركت فيها النساء، وعلى رأسهن بنت الرسول وزوجته، في مسائل تطال خلافة الرسول وأهلية الحاكم. لقد قمعت المرأة التي حاولت فرض حضورها. ومع هذا القمع، برزت الرغبة في حجب المرأة.

في الفصل الثاني، يوضح البحث كيف استمر تراجع وضع المرأة، خصوصا مع تحول الدولة الإسلامية إلى دولة عسكرية، تخوض المعارك بشكل دائم، وكيف أثرت غنائم الحرب التي تضمنت السبايا، اللاتي تدفقن على المقاتلين مع كل انتصار، بحيث صار على الحرة تمييز نفسها من خلال لباس ساتر يميزها عن الأمة، ثم صار عليها التزام بيتها خوفا من الفساد الذي تنشره كثرة الإماء.

ثم بين البحث كيف تحولت الإماء إلى سلع يجري ترويجهن، من خلال رفع مستوياتهن العلمية والفنية، ليصبحن، لاحقا، متحكمات في قصور الخلفاء. كل ذلك جرى في ظل تراجع مكانة المرأة الحرة، لتصبح واحدة في جيش من الحريم في بيوت الحكام والنخب العسكرية والمالية.

أما الفصل الثالث، فقد تطرق إلى وضع المرأة العربية المسلمة المعاصرة، وركز على حال المرأة العربية بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية، وكيف أثر الاحتكاك بالغرب على وضع

المرأة. ثم تطرق هذا الفصل إلى ما أطلق عليه عصر النهضة العربية، وأثر الاستعمار الغربي الذي حاول قمع أية محاولة لنهوض المرأة، ونهوض المجتمعات العربية، وصولا إلى الدول العربية الحديثة، خصوصا تلك التي رفعت شعار التحرر من الاستعمار، وشعار تحرير الشعوب من القيم والعادات القديمة. كما تناول الفصل الحركات الثورية التي دعت إلى مشاركة المرأة في عملية التغيير، كما دعت إلى تحريرها من العادات المتوارثة عن العصور المظلمة. ثم تحدث عن بروز الحركات السياسية الإسلامية الحديثة، وكيفية تأثير هذه الأحزاب، خاصة السلفية منها، على وضع المرأة، لتصبح صورة المرأة المسلمة محددة بشكل واضح من خلال لباسها الذي أطلق عليه اسم الحجاب.

Abstract

Women played an explicit and effective role in the beginning of the Islamic call (Dawah). According to the historical narratives, the first and only Prophet's wife (during her life time) Khadija was his strongest supporter. Women, alongside men, participated in facing the violence Muslims were subjected to. During the first meetings between the Muslims and the Prophet, there was no sign of the necessity to separate men and women in meetings and worship. Veil was also not mentioned while talking about the relationship between men and women.That was all in the shadows of the women's law status during the pre-Islamic/pagan era (Jahili), when full authority was granted to men, while women were controlled by men. Did Muslims, after the Islamic call had spread, preserve the high status women enjoyed in the beginnings?

The Quranic texts that talk about women represented a positive and qualitative change, especially if we compare these Quranic texts with texts from the Old Testament. But the status of women had deteriorated specifically after the migration and the establishment of a community indulged in battles for defending its existence.

The objective of the research is to examine the question of the veil/Hijab and its impact on women throughout the different Islamic ages, reaching the contemporary Muslim Arab women; in addition to tracking the transformations that affected women due to the concept of veil/ Hijab and its expansion to impact the complete women's clothing, presence, status, and her stereotypical image.

The research is laid out in three chapters. The first chapter presents the high status of women during the beginnings of the Islamic call (Dawah), and then the sequential declines of that status.

The first chapter shows that the veil has nothing to do with the women's clothing. It was considered to be a physical and moral concealment of women according to the seven verses in the Quran where veil was mentioned, and according to the language that was used to refer to it.

The chapter also tackles the influence of old prevailing values, which degraded women, on the new call, especially after the importance of male warriors had arisen. Male combatants had been given privileges justified upon text interpretations and narratives of deeds and sayings of the Prophet suggesting that women's complete body is a disgrace.

This chapter also clarifies the way political conflicts affected women's status after the Prophet's death.Those same conflicts, in which women participated and were led by the Prophet's wife and daughter, in matters that relate to the succession of the prophet and the eligibility of the governor. Women were suppressed while trying to impose their presence, however, with this repression emerged the desire to withhold women.

In the second chapter, the research demonstrates the way women's statues kept deteriorating, specifically along with the transformation of the Islamic State into a military state that is constantly engaged in battles, the way spoils of war influenced women, as they included female slaves brought back with the warriors after every victory. Therefore, free women had to distinguish themselves by being

covered up. Shortly after, they had to stay at home in fear of corruption spread by the large numbers of female slaves.

The research presents how those female slaves were turned into goods, who were later promoted by raising their scientific and artistic skills, to become, later, the controllers in the palaces of the Caliphs. All of that had happened as the status of free women retreated to become one of the army of the harem livingin the houses of the rulers and the military and rich elites.

As for the third chapter, it touches upon the status of the contemporary Muslim Arab women. It focuses on the conditions of the Arab women after the Ottoman Empire had collapsed, and how the contact with the West affected the status of women. Then this chapter turned to address the Arabic Renaissance, and the impact of the Western colonialism which tried to suppress any attempt for the advancement of women, the rise of the Arabic societies, up to the modern Arabic countries, especially those that raised the slogan of liberation from colonialism, and the slogan of liberating peoples from the old values and traditions. The chapter also addressed the revolutionary movements that sought after women's participation in the process of change; it also sought after freeing women from the traditions inherited from the dark ages.

The third chapter, then, talks about the emergence of the Modern Islamic political movements, and the influence of these parties, especially the Salafist ones, on the status of women, and how the image of Muslim woman became vividly defined by her dress, which is called the veil 'Hijab'.

المقدمة

حجبُ المرأة واحتجابُها، أصلهما الرغبة في التملّك، والخوف من خسارة المكانة، بدءًا من الفرد الذكر تحديدا، وصولا إلى المجتمع الذكوري، ثم الرغبة في فرض منظومة من القيم والأخلاق المدعومة بمؤسسات تمتلك الخطاب ووسائل تعميمه. في ذروة هذه الحالة، تساهم المرأة باحتجابها طوعا، وبفعلها ضمن المجموعات التي تسعى لجعل الصورة المرغوبة سلوكا مقدسا، ورمزا للماضي المجيد، الذي منح العربي السيطرة على الممالك والبلدان، ومكّنه من امتلاك الأشياء التي حرمته منها بيئته القاسية. وقد تمكّن التفسير الذكوري للنص من جعل المرأة جزءًا من ممتلكات الرجل.

من هنا، جاء الحجاب، كمصطلح، ليتجاوز اللباس المشهور، وصولا إلى نفي وجود المرأة في غير وظائفها البيولوجية، وتمجيد هذه الوظائف، في نفس الوقت الذي يحقّر به الجسد، ويصبح رمزا للغواية والدنس. والجسد هنا هو جسد المرأة، المقرون بالفتنة، التي تطال الرجال. والفتنة وظيفة الشيطان، لنعود إلى الخطيئة الأولى، المرتبطة بالشيطان والمرأة.

الإسلام دين، بدأ كثورة على القديم، كأيّ حركة شاملة للتغيير. ولأن الدين يأتي بالحقائق المطلقة والأحكام المطلقة، فسيكون التغيير الذي يبشر به ثوريا مستفزاً للمؤسسات القائمة، ومتصادماً معها بالضرورة. وهذا ما حصل بالنسبة للإسلام. فقد كان معظم المؤمنين الأوائل من الضعفاء، والنساء، أصحاب المصلحة في التغيير. وفي المرحلة التي كان الدين الجديد فيها بحاجة إلى كل فرد، بدا وكأنه يَعِد الضعفاء بجنة أرضية، تعيد لهم إنسانيتهم. وبالنسبة

للنساء، فقد ظهرن كشريكات كاملات، غير محدودات بالأنوثة. وهناك نماذج من نساء العصر الأول اللواتي لم يمت ذكرهن حتى اليوم.

لكن الأمر تغير، خصوصا بعد الهجرة، وبعد أن تم تأسيس نظام عسكري للمجتمع في المدينة. حيث برز الرجال بقوة، كفرسان وغزاة. وقد برزت المخاطر التي تهدد الدولة الوليدة في المدينة المنورة. فتركز الاهتمام على المحافظة على هذا الوجود، وما نتج عن ذلك من العمل على عدم التصادم مع الأفكار والعادات السائدة، والاقتصار على محاربة ما لا يمكن التوافق معه، مثل عدم التوحيد، والعادات المرتبطة به. ليصبح "المعروف" و"المنكر"، أساسيْن في التشريع؛ وذلك توافقا مع القيم الإيجابية التي تعارف عليها العرب. وقد طال ذلك ما يتعلق بالمرأة. لنجد أن الكثير من الامتيازات التي يتمتع بها الرجل قد تمت المحافظة عليه. وكان أبرز تلك القيم تعدد الزوجات، مع تحديد العدد بأربع، خصوصا أن عدد الزوجات عند العرب لم يكن محدودا بشكل عام. ثم تفاقم الأمر بعد موت الرسول، فقد أطلقت حرب الردة سلسلة من الانتصارات التي غيرت بنية المدينة الدولة، لتبشر بظهور دولة توسعت بشكل كبير، اعتمادا على الحرب، التي انخرطت فيها القبائل العربية وبسرعة. هذه الحرب التي أزاحت النساء إلى الظل، ومكّنت المحاربين من استحضار نصوص واختراع غيرها، بل وإحياء عادات قديمة تمكنهم من تحويل النساء إلى غنائم، واعتبارهن مجرد ثروة مثل الخيل والمال.

إشكالية البحث وفرضيته

على الرغم من أن المصادر التاريخية تحفل بالأحداث التي تبين مشاركة المرأة في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية مع بداية الدعوة الإسلامية، إلا أن وضع المرأة تراجع باستمرار، وصولا إلى تقييد مشاركتها في الحياة العامة، وتحديد الشكل الذي تظهر به، وتقييدها بفتاوى تجعل من عزلها مسلّمة دينية.

خاطبت العديد من النصوص القرآنية الرجل والمرأة مجتمعين، بصفتهما مؤمنين أو مسلمين، بما يتعلق بالعبادات، والواجبات، والحقوق. لكن المشرعين والفقهاء فرقوا بين الرجل والمرأة، وأحالوا الكثير من فتاويهم إلى السنة النبوية، وإلى مرجعيات تفسيرية، تعتمد، في معظمها، على موروثات من ديانات سابقة. وبناء على ذلك، يفترض البحث، في هذه الرسالة، أن القيود التي يضعها المشرع على شكل ظهور المرأة، وتحديد لباس شرعي لها، والحد من مشاركتها في الحياة بمختلف جوانبها، مسألة لا تتعلق بالدين، بل هي إنتاج لمجتمعات أبوية، حاولت أن تجعل من اضطهاد المرأة سلوكا شرعيا مقدسا.

أهمية البحث:

تعاني المرأة العربية، وخصوصا المسلمة، اليوم حالة من التهميش الناتج عن التخلف. وتتفاوت حالة الإقصاء من بلد عربي إلى آخر، مع إقحام تعسفي للمطلق الديني في معظم الأمور المتعلقة بوضع المرأة. لقد استخدمت الطريقة التي تظهر فيها المرأة للحكم على أخلاقية حقب تاريخية وشعوب مختلفة، كما صار إخفاء أو إظهار جسد المرأة، في كثير من

الأحيان، جزءا من الأسس التي يبنى عليها الموقف الأخلاقي من الآخر. وعلى الرغم من أهمية هذا الموضوع، فإن الدراسات التي تتناول إقصاء المرأة المنهجي واستغلال التحولات على مفهوم الحجاب بالتحديد تكاد تكون معدومة، مع أن لباس المرأة وموقعها في المجتمع حاضران دائما في الفتاوى والأحكام الأخلاقية التي ترتكز على ادعاءات دينية مبنية على سلف تاريخي متخيل.

مصادر البحث

هناك الكثير من الكتب والرسائل العلمية التي تحدثت عن المرأة ودورها، ولكن في سياقات متعددة منذ بداية الدعوة، مرورا بأحداث مهمة؛ مثل البيعة والهجرة والحروب التي خاضها الرسول، وكذلك القصص التي تتعلق بالحجاب وآياته، واللباس الذي على النساء ارتداؤه. هذه المصادر يمكن حصرها بما يلي:

القرآن الكريم كمصدر للتشريع الإسلامي. كما تمت الاستعانة بالعهدين القديم والجديد من الكتاب المقدّس. إذ تميز العهد القديم بنظرة دونية واضحة تجاه المرأة. كما وضع العديد من الضوابط الدقيقة للتعامل معها في الحالات المختلفة. أما العهد الجديد، فعلى الرغم من قلة النصوص المتعلقة بالمرأة، إلا أنه ربطها أيضا بالدنس، ما أثر على سلوك المؤمنين تجاهها.

المصادر العربية والإسلامية:

وهي كتب السيرة، والتفاسير، وكتب الحديث؛ لما لهذه الكتب من تأثير على المسلمين، الذين ينظرون إليها، في كثير من الأحيان، بقدسية. وقد تأثر كتاب هذه الكتب بالكثير من العادات القديمة، وكذلك بالكتب الدينية، خصوصا اليهودية، فيما يتعلق بتفسير بعض الأمور الغامضة في النصوص القرآنية، وكذلك لتوضيح ما لم يوضح من قبل الأحاديث.

كما تم استخدام الكتب التي تتحدث عن غزوات الرسول، والتراجم، والسير. وكذلك تمت الاستعانة بكتب تواريخ المدن، وتواريخ الخلفاء، التي وفرت معلومات هامة حول الوضع الاجتماعي فيما يتعلق بالمرأة والرجل، خصوصا لدى الفئات العليا من المجتمع. وبالإضافة إلى هذه المصادر، فقد استفاد الباحث من الدراسات المعاصرة، خصوصا المتخصصة منها، والتي عالجت قضايا المرأة، ومكانتها الدينية، وتصدى الكثير منها لمسألة الحجاب. وقد تنوعت هذه الكتب باختلاف آراء كتابها، مع الأخذ بعين الاعتبار أننا نتحدث عن كتّاب استمدوا آراءهم من مرجعية دينية وتاريخية إسلامية. فهناك من آمن بضرورة حجب المرأة باعتبارها مصدرا للفتنة، وأن حجبها واجب ديني؛ وهناك من اعتبر مشاركة المرأة في جوانب الحياة المختلفة غير مخالفة للشرع، إلاّ أن هناك ضرورة لالتزام المرأة بضوابط شرعية تتمثل باللباس، وبعدم الخلوة مع الأجانب. وإلى جانب هذه الآراء، كان هناك من يرى في كل المعروف والمتوارث حول المرأة خطأ جسيما. فالمرأة لا تختلف عن الرجل، ولها الحق في المشاركة في كل جوانب الحياة، مع حرية، شبه مطلقة، في ارتداء ما تريد. وسوف نستعرض ثلاثة مراجع لكتاب معاصرين شكلوا مرجعية مهمة لقوى سياسية، او تمكنوا من بناء قاعدة تتابع آراءهم، فحسن البنا الذي يعتبر كمؤسس لحركة الأخوان المسلمين، يعتبر مرجعا مهما

لأتباع هذه الحركة في العالم حتى اليوم، ومن هنا تأتي أهمية أفكاره. أما حسن الترابي فهو مفكر له العديد من الكتب والدراسات حول التجديد في الإسلام، اضافة إلى نشاطه السياسي ومشاركته في تأسيس العديد من المنظمات والأحزاب، ومشاركته في فترة ما في الحكم. بالنسبة لمحمد شحرور، فاختيارنا له جاء بسبب أفكاره التي يدعو فيها لقراءة مغايرة للنص القرآني، وكذلك لانتشار هذه الأفكار في أوساط العديد من دعاة إعادة النظر في التفسيرات السائدة للنصوص الدينية.

أولا:- كتاب "مذكرات الدعوة والداعية" لحسن البنا:

تفتّح وعي حسن البنا في بداية العشرينيات من القرن العشرين، وعلى الرغم من عدم وجود تاريخ محدد لكتابة مذكراته، فإنّه يبدو واضحا للقارئ بتمعن أنها لم تكتب كيوميات، بل كتبت بعد تأسيس حركة الإخوان المسلمين واستقرارها، في أربعينيات القرن العشرين. يؤكد البنا، في أكثر من مكان من مذكراته، أن الله يرضى عن الحركة، ويوفق خطاها؛ وهذا دليل على صحة منهجها. مذكرات حسن البنا بسيطة، وبعيدة عن العمق الفلسفي. وهي، كمرجع، لا يمكن التأكد من صحة ما فيها، لغياب التوثيق، والاعتماد على مصداقية الراوي فقط. لكن أهمية المذكرات تأتي من أهمية حركة الإخوان المسلمين، وحضورها في تاريخ منطقتنا العربية، من عشرينيات القرن العشرين وحتى اليوم. هذه الحركة التي تأسست بعد سقوط الخلافة، وكما يوضح البنا، في مذكراته، فإن حال الأمة البعيد عن الدين هو سبب ضعفها، وأنها لن تنهض دون العودة إلى الأصول. وتتجلى مظاهر البعد عن الدين بالانحلال، وانتشار دعوات التغريب والعلمانية. وعلى هذا بنى البنا دعوته، التي لقيت صدى واسعا بين

المصريين الريفيين البسطاء، ثم انتشرت بين طلبة الجامعات، عندما تطورت لتصبح دعوة للتغيير من خلال الجهاد، وعندما وضّحت عداءها للاستعمار، الذي يحاول السيطرة على الأمة من خلال نشره الثقافة الغربية التي تدعو إلى الانحلال. وهكذا، نجد أن البنا، في مذكراته، لا يلتفت إلى التخلف الذي تعاني منه الأمة العربية والإسلامية، ويجعلها ضعيفة في مواجهة حضارية مع أمم تتفوق عليها في كل شيء، ويرى أن سر ضعف الأمة هو ابتعادها عن الأخلاق الإسلامية، وانتشار دعوات التغريب، مثل الدعوة إلى تحرر المرأة، التي يرى في سفورها، ومشاركتها في جوانب الحياة المختلفة، أهم أسباب المفاسد. وكذلك، نراه يحارب مظاهر المعاصرة المتمثلة بالفنون المختلفة، التي يعتبرها وسيلة لنشر هذه المفاسد.

ثانيا:- كتاب حسن الترابي "المرأة بين الأصول والتقاليد":

بدأ حسن الترابي حياته السياسية كعضو في حركة الإخوان المسلمين، لكنه انفصل عنها، وطرح أفكارا مغايرة في مسائل دينية كثيرة، حورب من أجلها. وفي نظرته للمرأة، نراه يفترق عن المدارس السلفية التي تشددت في مسألة حجب المرأة وإبعادها عن الحياة السياسية والاجتماعية. في كتابه "المرأة بين الأصول والتقاليد"، يعتمد الترابي على النصوص القرآنية، وأحداث حدثت زمن الرسول، مرتكزا إلى السيرة النبوية، ودور المرأة منذ بداية الدعوة، ومشاركتها في كل جوانب الحياة في مجتمع المدينة المنورة زمن الرسول. مرجعية حسن الترابي هي القرآن والسنة فقط. فالمرأة مساوية للرجل، لكن "الله خفف عليها في مسألة النفقة وإقامة الصلاة والنفير إلى القتال". وهو لا يرى ضرورة اقتداء نساء المسلمين بنساء الرسول

في مسألة الحجاب. كما يساوي بين الرجل والمرأة في مسألة الفتنة، التي تبقى حاضرة في العلاقة بين الرجل والمرأة عند حسن الترابي. كتابه لا يعتمد التوثيق، ويعرض فلسفته بتدعيمها خلال النص بآيات من القرآن وقصص من السيرة النبوية.

ثالثا:- كتاب "نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي- فقه المرأة-" لمحمد شحرور:

اخترنا هذا الكتاب لمراجعته لسبب محدد، وهو الفهم المغاير للنصوص التي يقترحها الكاتب، ورفضه لقبول التفسير السائد للقرآن، وحتى ما ورد منه عن الرسول.

يطرح محمد شحرور، في كتابه، أفكارا ثورية تنقض العديد من المسلّمات الدينية في ما يتعلق بالإرث، والمرأة، واللباس الشرعي. فهو يرى أن القرآن صالح لكل زمان ومكان. وبصفته هذه، فإنه لا يمكن لأي إنسان أن يملك الإدراك الكلي له، حتى إن كان نبيا أو رسولا. ففهم الرسول للنص مرتبط بزمنه، ولا يمكن أن يمتلك، بصفته البشرية، القدرة على التفسير الصالح لكل العصور. كما يرى أن السنة النبوية هي الخيار التطبيقي الأول للوحي، ولكنها ليست الخيار الوحيد. فمعيار الأخذ بالسنة يتم بمطابقتها مع النص القرآني ضمن الفهم المعاصر والعقل المعاصر الذي يتجاوز، بالضرورة، الفهم الذي ساد زمن النبوة، بسبب التطور المعرفي والحضاري. ويعتمد شحرور على التحليل في كتابه، من خلال استعراض عدد كبير من الآيات المتعلقة بموضوعه، وكذلك العديد من الأحاديث التي تدعم وجهة نظره، خصوصا ما يتناقض منها، حسب رأيه، مع النص. لقد بذل شحرور جهدا هائلا في كتابه ليصل إلى إقناع القارئ بصحة فرضياته، التي تبدو صادمة وخارجة عن المألوف. ففي خلاصته لما يجب أن يغطى من الجسد، بالنسبة للرجل "العورة المغلظة" حسب ما

اصطلح عليه الفقهاء؛ وبالنسبة للمرأة، الجيوب فقط. ويوضح أن الجيوب هي: الثديان، وتحت الإبطين؛ وكذلك الجيوب السفلية، وهي الفرج والإليتين. وما عرف بالزي الشرعي هو لباس اجتماعي توافق عليه الناس، ويختلف من بلد إلى آخر.

منهجية البحث

اتبعت في بحثي منهج البحث التاريخي التحليلي، معتمدا على التاريخ الاجتماعي لمرحلة صدر الإسلام، وعلى كتب تاريخية وروايات ونصوص أدبية متفرقة لجمع البيانات الضرورية لهذا البحث. كما قمت بمراجعة الكتب والدراسات الحديثة، التي تحدثت عن قضايا المرأة، والتي عالجت شؤونها، خصوصا تلك الدراسات التي عبرت عن وجهة نظر لاتجاهات دينية أو سياسية، والدراسات الجادة التي عالجت مواضيع بعينها، تتعلق بالمرأة، وموقف الدين من حضورها وظهورها.

الفصل الأول

المرأة العربية في صدر الإسلام

في معنى الحجاب:

الحجاب هو ما يطلق اليوم على اللباس الذي تلبسه المرأة المسلمة ضمن معايير محددة، لكن الحجاب بهذا المعنى أصبح مفهوما اصطلاحيا. أما الحجاب في اللغة كما ورد في لسان العرب فلا علاقة له باللباس بل بالستر في إطار مكاني يخفي المحجوب عن الأعين. الحجاب: "الستر. حجب الشيء يحجبه حجبا وحجابا وحجبه: ستره. وقد احتجب وتحجب إذا اكتن من وراء حجاب. وامرأة محجوبة: قد سترت بستر.[1] وقد وردت كلمة الحجاب في القرآن في سبعة مواضع وهي كما يلي:

1- "**وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً * فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً**" (مريم: 16 . 17).

2- "**فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالحِجَاب**" (ص: 32).

3- "**وَإِذَا قَرَأْتَ القُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً**" **(الإسراء: 45)**

4- "**وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ ممَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ**" (فصلت: 5).

---

[1] ابن منظور. **لسان العرب**. (بيروت: دار صادر، 2003). المجلد الأول، ص298.

5- **"وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إلاّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ"** (الشورى: 51).

6- **"وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُم"**(الأعراف: 46).

7- **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إلاّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الحَقِّ وَإِذَا سَالتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللهِ عَظِيماً"** (الأحزاب: 53).

وبالعودة إلى تفسير الآيات جميعها نجد أن كلمة الحجاب لا تعني في أي منها اللباس. ولكنها تظهر بوضوح أن الحجاب هو ساتر مادي يفصل شيئيين عن بعضهما، او ساتر معنوي يحجب عن العقل إدراك الحقيقة. إذا كيف تحولت كلمة الحجاب لتصبح دالة على لباس المرأة المسلمة؟ وهل لذلك علاقة بعملية إقصاء تاريخية مورست على المرأة العربية؟ ومن أجل معرفة ذلك سوف نقوم بمراجعة لباس المرأة العربية زمن الرسول.

لباس المرأة زمن الرسول

لم يفرض الرسول على المسلمات في بداية الدعوة لباسا خاصا يميزهن عن النساء غير المسلمات، وعليه فإن لباس المرأة المسلمة هو نفس لباس المرأة غير المسلمة بما يتوافق مع العرف الاجتماعي السائد ومع الأخلاق التي ارتبطت بالإسلام. ولكي نعرف ذلك علينا أن نبحث في لباس المرأة العربية في الجاهلية.

كانت المرأة في الجاهلية تغطي رأسها ووجهها، وتستخدم في ذلك قطعا من القماش يطلق عليها أسماء مختلفة مثل: الخمار والقناع والبرقع والنصيف واللفام واللثام. فالخمار والقناع يغطيان جزء من الوجه أما البرقع فيغطي كل الوجه. وكذلك القناع فهو إن غطى الأنف فهو اللثام وإن نزل حتى اللفم فهو اللفام.[2] أما بالنسبة للملابس فقد كانت المرأة العربية تلبس ثيابا تجلب من مناطق مختلفة وبأنواع مختلفة، وأكثرها شيوعا ما سمي الشعار والدثار. أما الشعار فيلبس على الجسد مباشرة، وهو عبارة عن ثوبين قصيرين لا أكمام لهما. والدثار فهو ثوب يلبس فوق الشعار ويلبس فوقه الدرع أو البت وهو ثوب يحيط بجسم المرأة ويغطي جزء من رأسها ووجهها. وتلبس المرأة ملابس أخرى تغطي كل جسمها ولها أسماء كثيرة، وهناك أيضا ما يخص الكفين والقدمين. وتصنع هذه الملابس من مواد مختلفة حسب الوضع الاجتماعي للمرأة، مثل الحرير والفراء والوبر.. الخ.[3] وقد كانت المرأة العربية تختلط بالرجال، وترتاد المجالس العامة، وقد ترتدي ملابس تبقي الرأس والأذنين والعنق والصدر والذراعين والقدمين مكشوفة.[4] وقد قال الزمخشري في تفسيره للآية 31 من سورة النور أن النساء كن يخرجن وجيوبهن تكشف عن صدورهن، أي الثوب واسع مفتوح الصدر وكاشف له.[5] وهذا الوصف تكرر عند الكثير من المفسرين ممن تحدثوا عن اسباب النزول لهذه الآية.

---

[2] عبد الله عفيفي. **المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها**. (المدينة المنورة: مكتبة الثقافة، 1932). ص109–110.

[3] المرجع السابق، ص111–112.

[4] فاضل الأنصاري. **العبودية –الرق والمرأة بين الإسلام الرسولي والإسلام التارخي**. (دمشق: الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، 2001). ص 251.

[5] أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري. **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**. (بيروت: دار الكتاب العربي، 1986). الجزء3، ص231.

لم يرد عن الرسول ما يغير لباس المرأة بعد الإسلام، ولكن هناك أحاديث تنهى عن لباس معين مثل اللباس الشفاف. وكذلك هناك حديث أسماء بنت أبي بكر أنها دخلت على رسول وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها الرسول، وقال: يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم تصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا– وأشار إلى وجهه وكفيه.[6] وهذا الحديث يرفضه الكثير من المعاصرين خصوصا أنه يبين بوضوح جواز كشف الوجه. ولكن الثابت ما ورد عن الرسول من كرهه للباس الذي يدل على البذخ والخيلاء، ونهى عن لبس الحرير للرجال.[7] وقد أمر الرسول في أكثر من حديث بالتواضع في اللباس وقد كره الثوب الطويل الذي يجر وقال: "لا ينظر الله إلى من جر ثوبه خيلاء"[8]. نجد مما سبق أن لباس المرأة زمن الرسول لم يكن يشكل مركزا للاهتمام، بل ترك لما ساد من الأعراف.

وضع المرأة وإمكانات التغيير في الرسالة الجديدة

كان الأساس الذي قام عليه الإسلام هو الدعوة إلى إله واحد، وقواعد محددة لعبادته، ونظم وقوانين لطريقة الحياة؛ ما يعني تقويض المكانة الدينية التي تتمتع بها مكة وكعبتها، والتي قدستها الكثير من القبائل، وأمتها في موسم الحج، تلك القبائل، التي نصبت آلهتها حول الكعبة، اختلفت آلهتها، ولكنها لم تختلف في تقديسها للكعبة.[9] وما يعني أيضا تقويض الأساس الاقتصادي المعتمد على مكانة مكة وبيتها العتيق، الذي رويت حول قداسته العديد

---

[6] أبو داود سليمان بن الأشعث.**سنن أبو داود**. (بيروت: دار الرسالة العالمية،2009). الجزء 6، ص199.

[7] مسلم بن حجاج. **صحيح مسلم**. (دار طيبة، 2006). ص 994.

[8] المرجع السابق، ص 1000–1002.

[9] هشام بن السائب الكلبي. **كتاب الأصنام**. تحقيق: أحمد زكي باشا. (القاهرة: دار الكتب المصرية، 1995). ص. 31.

من الروايات، ولعل أهمها رواية محاولة هدمه من قبل أبرهة، وهي محاولة انتهت بفشل أبرهة، ودمار جيشه.[10]

كانت مكانة مكة عظيمة، فهي مركز ديني، واقتصادي، وثقافي؛ تجتمع فيها القبائل العربية في موسم الحج من كل عام. واكتسبت قريش، التي تسكن مكة، مكانة كبيرة بين القبائل.[11] وبسبب هذه المكانة، استطاعت أن تسير قوافل تجارية، شكلت المصدر الأساسي لثروتها دون الخوف من التعرض لهجمات القبائل. وقد ورد في كتاب "المنمق في أخبار قريش" ما يوضح ارتباط مكانة قريش بتجارتها، وبقداسة الكعبة، وذكر الإيلاف، الذي ضمن لقريش طرق التجارة، وكذلك العديد من الاتفاقات في مكة، منها: حلف المطيبين، والأحلاف، والفضول؛ وهي تعاقدات، تحمي التجار القادمين من الاعتداء عليهم حفاظا على مكانة مكة، وحماية لتجارتها من انتقام المعتدى عليهم.[12] وعليه، فإن دعوة الرسول، لقيت معارضة شديدة من داخل مكة. إذ حاولت قريش إغراء الرسول بالمال وبالسلطة، من أجل التخلي عن دعوته، لكنه أخبرهم أنهم بإيمانهم، سوف يحكمون العالم. وهذا ما يشير إلى معرفة الرسول أن السبب الأساسي لرفضهم، يعود لخوفهم على مكانتهم بين العرب.[13] وقد ذكر الطبري خبر هدم الكعبة وإعادة بنائها، الذي لم يتم إلا بالاتفاق بين عشائر مكة. وفي هذه الحادثة، ذكر الطبري دورا مبكرا للرسول في جمع هذه العشائر، من خلال حل تمثل في وضع الحجر

---

[10] أبو محمد عبد الملك بن هشام. **السيرة النبوية**. تحقيق: مصطفى السقا. (بيروت: دار المعرفة). ص. 45-54.

[11] علي الدشني. **23 عاما دراسة في السيرة المحمدية**. ترجمة ثائر ذياب. (دمشق: بترا للنشر والتوزيع، 2004). ص. 64.

[12] أبي حسن بن على المسعودي. **مروج الذهب ومعادن الجوهر**. (بيروت: المكتبة العصرية، 2005). ج2، ص214. للمزيد: محمد بن حبيب البغدادي. **المنمق في أخبار قريش**. (بيروت: عالم الكتب، 1985).

[13] أبو جعفر محمد بن جرير الطبري. **تاريخ الأمم والملوك**. مراجعة نواف الجراح. (بيروت: دار صادر، 2003). ج1، ص 334.

الأسود في ثوب، ثم اشتراك ممثلوا العشائر في رفعه، وقيام الرسول بوضعه في مكانه. هذه القصة، إن صحت، تبين اعتراف الرسول المسبق، بقدسية المكان، وقدسية ما يمثله بالنسبة للعرب، من سبب للاجتماع والاتفاق على المقدس. إن الإسلام، وإن اعتبر الآلهة المتعددة للعرب أمرا باطلا، إلا أنّه ظل يقدس الكعبة، ويجعل منها مكانا للتجمع والوحدة، وهو بذلك اعترف بالقديم، مع التغيير الجذري الذي اقترحه ودعا إليه، إله واحد لا شريك له.[14]

كانت سيرة الرسول اللاحقة، والتدرج في نزول القرآن يوضحان الاعتراف بقوة المعتقدات القديمة، ورسوخها، وصعوبة نفيها مرة واحدة بشكل كامل، والحاجة إلى التروي في نقض ما اعتاد الناس عليه، "**وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ م ُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا**..." (الإسراء: 106). وهذا يطال جميع الأمور الهامة التي تم إلغاؤها وشكلت مجموعة القيم والمعتقدات قبل الإسلام.[15]

لم يختلف الأمر في نظرة الإسلام للقيم المتعلقة بالمرأة، تلك القيم الراسخة المرتبطة بمجتمع أبوي، يعتبر الحياة تدور حول الرجل، ويعتبر المرأة تبعا له. لكن الإسلام، منذ البداية، وإن دعا للمحافظة على المعروف الاجتماعي، ومحاربة ما ينكره المجتمع، اعتبر أنه استمرار لدعوات سابقة هي اليهودية والمسيحية، وديانات أخرى تؤمن بإله واحد، بحيث لا يمكن البحث في وضع المرأة زمن الرسول، دون الرجوع إلى الأصول الفكرية للإسلام، خصوصا أن الحديث عن حال المرأة يعتمد، بشكل كبير، على ما كتب في السيرة النبوية، على الرغم

---

[14] المصدر السابق 323.

[15] مصطفى بغا، نور الدين مستو. **الواضح في علوم القرآن**. (دار العلوم الإنسانية، دار الكلم الطيب، ط2، 1998). ص 48.

من الخلط الكبير بين الحقائق التاريخية. وبين الرغبات، بناء على فهم وقناعات الكتاب أنفسهم.

كما أكد القرآن الصلة بين الدين الإسلامي والدين اليهودي والدين المسيحي، واعتبار هذه الأديان متكاملة: **(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)** (الأعراف: 157). بل ذهبت الأمور إلى أبعد من ذلك باعتبار أن دين الله دائما هو الإسلام (يونس: 90، آل عمران: 52).

إن مصدر الدين واحد، والاختلاف بين الأديان يعود لاختلاف الزمن، أو لخصوصية الرسائل إلى شعب محدد، أو التحريف الذي أدخله البشر على هذه الديانات. وهذه العلل بعيدة عن الدعوة الجديدة التي جاء بها محمد لجميع البشر. فهو معاصر، وعام، ولم يحرف، بحكم وجود النبي بين المؤمنين يرونه بأعينهم. وعليه، فإن الدين الجديد، سوف يلغي كل ما هو باطل ودخيل على ما جاء به الرسل من قبله. وإن هذه الدعوة هي استمرار لما سبق، وتصحيح للأخطاء البشرية. وبذلك، تكون النظرة إلى المرأة هي أيضا بحاجة إلى التعديل والتغيير. فالمرأة، زمن البعثة، محكومة بمجموعة القوانين الاجتماعية والاقتصادية والميثولوجية السائدة. وهي تنتمي لمجتمعات متعددة، تسودها قيم وتقاليد متشابهة، ولكنها تحمل العديد من التمايزات. فحال المرأة في البادية يختلف عنه في الحواضر. وحالها في عمق الجزيرة العربية يختلف عن حالها في المناطق الملامسة لحضارات أخرى، كما إن الواقع الطبقي جعل وضع المرأة الثرية يختلف عن وضع المرأة الفقيرة. لكن القرآن وضع

الأساس لجعل المرأة كائنا ندا للرجل، خُلقا من نفس واحدة **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)** (النساء: 1).

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (الروم: 21).

يقول ابن رشد: "الأصل أن حكمهما واحد – أي المرأة والرجل – إلى أن يثبت في ذلك فارق شرعي".[16] وهناك آيات كثيرة في القرآن تساوي بين المرأة والرجل في الخطاب، وفي الحقوق والواجبات، ويمكن أن تكون أساسا لتشريع يساوي بين الرجل والمرأة. وفي إعلان الرسول لرسالته، خاطب قريش قائلا: "يا معشر قريش اشتروا أنفسكم، لا غنى عنكم من الله شيئا. يا بني عبد مناف، اشتروا... يا عباس بن عبد المطلب... يا صفية بنت عبد المطلب...". [17] نرى الرسول يوجه دعوته لعمه العباس، وعمته صفية دون تفرقة. لكن قوة العادات السائدة، والتطورات التي حدثت بعد وفاة الرسول في العصور اللاحقة، دفعت بالمرأة إلى وضع جعل منها عورة يجب سترها أو حجبها. وقد أوضح الغزالي في كتابه "إحياء علوم الدين"، الغرض من وجود الذكر والأنثى، ولخص ذلك في قول الرسول "تناكحوا تناسلوا"، وذلك من أجل التكاثر. وبرأيه، فإن للشهوة غايتين، استمرار النوع، والوعد بلذة تشبه اللذة الجنسية، لكنها دائمة، يحصل عليها المؤمن في الجنة.[18] هذه النظرة الواعية المبكرة للمرأة ودورها الوظيفي

---

[16] عبد الحليم أبو شقة. **تحرير المرأة في عصر الرسالة**. (الكويت: دار القلم للنشر والتوزيع، ط5، 1999). ص. 72.

[17] نقلا عن المرجع السابق، ص. 115.

[18] نقلا عن فاطمة المرنيسي. **ما وراء الحجاب**. (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2007). ص 14.

تختلف جوهريا عن نظرة الديانات السابقة، التي غلّفت النظر للمرأة بمجموعة من الأساطير التي تعزز دونيتها.

المرأة العربية قبل الإسلام

كانت المرأة في الجزيرة العربية تعيش في ظل مجتمع أبوي، تسود فيه العادات التي تعطي للذكر حق السيطرة على كل شيء، بحيث تتمحور حياة المرأة بمختلف جوانبها حول حاجاته ورغباته. إن عملية تغيير هذا الوضع لا يمكن أن تتم بخطوة واحدة. بل بالتدريج، لتجنب الصدام مع الأعراف السابقة.[19] هذا الواقع لا يختلف كثيرا في الكيانات الملاصقة للجزيرة العربية، والتي تملك حضارات أكثر تطورا. ففي العراق، كانت السيطرة للفرس، وفي الشام كانت للروم. الأمر الذي جعل المنطقة بأكملها متأثرة بكل ما يجري في الإمبراطوريتين. ومع أن الإسلام اتخذ موقفا مؤيدا للروم في الصراع الدائر بينهم وبين الفرس (سورة الروم)، منطلقا من كون الروم يتبعون ديانة سماوية على عكس الفرس، فإن هذا الموقف الفكري شرع، منذ البداية، الرجوع إلى الديانات السماوية كمصدر للتشريعات التي تحدد الطريقة التي سوف تبني حياة المجموعة الجديدة، التي بدأت بالظهور.

وقد ذكرت العديد من المصادر أن الرسول كان، منذ بداية الدعوة، على صلة بالمسيحية.[20] كما يمكننا أن نرى، وبشكل واضح، أثر التشريعات والقصص التوراتية في القرآن الكريم، خصوصا في الفترة ما بعد الرسول، وهو ما عرف بالإسرائيليات. لكن هذا التأثر لا يلغي

---

[19] محمد شحرور. **الكتاب والقرآن قراءة معاصرة**. (دمشق:الأهالي للتوزيع والنشر، ط6، 1994). ص. 595.

[20] البخاري. **صحيح البخاري**. (دمشق، بيروت: دار بن كثير، 2002). ص8.

التأثير العراقي، خصوصا للقصص والأساطير البشرية حول خلق الكون والكائنات، والتحديد الإلهي لأدوار كل من الرجل والمرأة. فالتوراة، نفسها، اتخذت من هذه الأساطير مصدرا أساسيا لها. وقصة الخلق التوراتية والقصة القرآنية تتشابه مع قصة الخلق البابلية، التي تعيد كل الأشياء إلى الماء.[21]

لقد كانت المسلمات المتعلقة بالمرأة عامة في المنطقة كلها، إذا لم نقل أنها عالمية، رغم الفوارق المتعلقة بمستويات التطور من منطقة إلى أخرى، وكذلك مخالطة هذه المسلمات ببعض العادات القديمة المتسربة من مجتمعات أمومية قديمة، تجلت بالفخر بإمرأة بعينها، بل وظهرت جلية في آلهة الجزيرة المشهورة (اللات والعزى ومناة)، وهن آلهة مؤنثة مرتبطة بالقوة والموت، أي بالحرب والصراع الذي يدور بين القبائل، وكذلك بالخوف العميق الذي يحمله الرجل من احتمال سيطرة المرأة، فجعل آلهته المحاربة نساء يلتمس منهن النصر، ويتحالف معهن حتى على النساء أنفسهن، (آلهة مكة، آلهة العراق، آلهة مصر). كذلك، تسربت المرحلة الأمومية لدى العرب إلى أنساب القبائل وتقسيم القبيلة، مثل البطن، والفخذ، والرحم. وصلة الرحم، كقرابة، هي الأقدم، حيث لم يكن الزواج التقليدي معروفا، وكان من الصعب تحديد هوية الأب.[22]

وقد وصلت إلينا ملحمة جلجامش التي أسست لقصص في ديانات لاحقة حول الصراع بين الذكر والأنثى، فهو الذي جاء من رحمها – جلجامش أمه إلاهة أنثى، وأبوه بشري – يرفض حب عشتار، ويتهمها بالخيانة للرجل، لتعاقبه بتسليط المرض على صديقه. وبعد

---

[21] فراس سواح. **مغامرة العقل الأولى**. (دمشق: دار علاء الدين، ط13، 2007). ص. 145– 146.

[22] جواد العلي. **في تاريخ العرب قبل الإسلام**. (بغداد: جامعة بغداد، 1993). ج 1، ص. 524.

موت صديقه، يذهب في رحلة البحث عن الخلود، ليلتقي الرجل الناجي من الطوفان (أو تنابشتيم)، ويخبره بسر نبته الخلود. وبعد أن وجدها، تسرقها منه الحية. الحية التي ارتبطت بعد ذلك بالمرأة، ودورها في طرد الإنسان من الخلود إلى حياة الفناء.[23] لقد كان للمرأة في العصور القديمة أهمية كبرى، وجسدها، بكل تفاصيله، هو ما يجلب الخير، ويحفظ بقاء البشر. فالتماثيل المكتشفة للآلهة الأنثى في بلاد ما بين النهرين كانت تصور العري الكامل للمرأة مضخمة النهدين والوركين كرموز للخصوبة. وحافظت هذه الصورة على نفسها حتى الألف الأولى قبل الميلاد، أي في العهد الأشوري، حيث بدأت الصورة تتغير لتظهر المرأة ترتدي الملابس التي تغطي حتى رأسها.[24]

المرأة في اليهودية

تمثّل المرأة، حسب الديانة اليهودية، الغواية التي تقود إلى البؤس. وقد تأسست هذه النظرة بناء على القصة الشهيرة التي تحمل حواء مسؤولية طرد البشر من النعيم الدائم. فقد تورطت مع الشيطان لإغواء آدم. والنتيجة خروجه من نعيم الجنة إلى المعاناة التي يعرفها الإنسان. في الإصحاح الثاني من سفر التكوين يقول آدم: "المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت. فقال الرب الإله للمرأة: ما هذا الذي فعلت؟ فقالت المرأة الحية أغرتني فأكلت. فقال الرب الإله للحية: لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية... وأضع عداوة بينك وبين المرأة، وبين نسلك ونسلها، هو يسحق رأسك، وأنت تسحقين

---

[23] فراس سواح. **جلجامش**. (دار علاء الدين، ط2002،2). ص. 24-27.

[24] أيوب أبو دية. **الحجاب في التاريخ**. (بيروت: دار الفارابي، 2012). ص. 30-39.

عقبه. وقال للمرأة: تكثيرا أكثر أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولادا، وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك".[25] هذا هو حكم الله على المرأة لأنها ساهمت في إغواء الرجل فعصى. والحمل والولادة التي أكسبت المرأة مكانتها العظيمة، صارت لعنة عليها، وعقوبة لها. وقد استحقت المرأة عقوبات متنوعة بسبب هذا الفعل، تبدأ بتكوينها الذي تغير لتصبح رموز أنوثتها معاناة. ولم تكتف التوراة بهذه العقوبة، بل أضافت إليها الدنس الذي يلحق بالمرأة، فدم الحيض نجس، بحيث تبعد المرأة خلال حيضها عن الأسرة، وتمنع من الاقتراب من عائلتها. كما تمنع المرأة، على العموم، من دخول أماكن محددة في المعابد. والمرأة، بشكل عام، لا تتعدى مرتبة العبد، وسيدها هو الرجل، سواء أكان أبا، أو أخا، أو زوجا، أو حتى ابنا.[26] المرأة هي شيطان الرجل، هي التي أغوته، لذلك سلطه الله عليها لتكون مستعبدة من قبل ولتلد له الأولاد.[27]

والمرأة، في اليهودية، يستغلها زوجها. فهذا إبراهيم يطلب من سارة أن تدعي أنها أخته خوفا على نفسه من جمالها، ورغبة في تحصيل المكاسب منها، فيقول لها: "إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون: هذه امرأته، فيقتلونني ويستبقونك. قولي أنك أختي، ليكون لي خير بسببك، وتحيى نفسي من أجلك".[28] وعلى الرغم من أهمية سارة بالنسبة لليهود، فهي الأم الكبرى، فإننا نرى بوضوح في القصة التوراتية أن قيمتها تشبه قيمة الأمة التي تباع وتشترى، وإن أحبها سيدها. والرجل، في التوراة، له حق

---

[25] العهد القديم، سفر التكوين، الآيات: 2-16.

[26] العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح الثالث، الآيات: 14-19.

[27] أحمد عبد الوهاب، **تعدد نساء الأنبياء ومكانة المرأة**. (القاهرة: مكتبة وهبة، 1989).ص. 191.

[28] العهد القديم، سفر التكوين الإصحاح الثاني عشر، الآيات: 10-13.

بتعدد الزوجات، وأن تسلم زوجته بهذا الحق، بل تقوم هي بتزويجه من جاريتها لتلد لها الأبناء. "تقول ساراي لأبرام: هو ذا الرب قد أمسكني عن الولادة، أدخل على جاريتي لعلي أرزق منها بنينا".[29] وتكمل التوراة قصتها: تغار سارة من جاريتها، فقامت بإذلالها لتهرب بطفلها. وحسب النص، لا ذنب لإبراهيم، بل سارة التي تزوجه، وسارة التي تتسبب في هرب الجارية. ولم يكتف إبراهيم، وتزوج مرة أخرى، لكن ميراثه يعود لابن سارة إسحق، ويطرد أبناءه الآخرين شرقا. وتتكرر قصة إبراهيم مع ابنه إسحق، ويدعي أن زوجته هي أخته خوفا من ملك الفلسطينيين، وكأن القصة تعزز انحطاط مكانة المرأة.[30] وتتوالى قصص النساء لنصل إلى قصة يوسف، حيث تحاول زوجة سيده إغواءه، لكنه يهرب منها؛ وحقدا منها تقول لزوجها أنه حاول الاعتداء عليها.[31]

والمرأة بعد الولادة نجسة في جميع الأحوال. لكنها إن أنجبت ذكرا فهي نجسة لأسبوع، وتبقى كذلك ثلاثين يوما حتى تطهر من الدم. أما إذا كانت مولودة أنثى، فهي نجسة لأسبوعين، ويستمر ذلك مدة ستين يوما.[32] والمرأة تعاني في أيام حيضها، فهي نجسة سبعة أيام، وهي تصيب كل شيء يلمسها بالنجاسة. وكل من يمس فراشها عليه الاغتسال، وغسل ثيابه، ويكون نجسا حتى المساء.[33]

---

[29] العهد القديم، سفر التكوين. الإصحاح السادس عشر، آية 2.

[30] العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح السادس والعشرون، آية 7.

[31] العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح التاسع والثلاثون، الآيات: 11–15.

[32] العهد القديم، سفر اللاويين. الإصحاح الثاني عشر، الآيات: 2–6.

[33] العهد القديم، سفر اللاويين، الإصحاح الخامس عشر، الآيات: 19–23.

المرأة بالنسبة للتوراة متدنية عن الرجل، فهي مملوكة لزوجها، يتصرف بها كيفما يشاء، وهي ملعونة بسبب المعصية الأولى التي ورطت فيها الرجل، وهي نجسة في أحوال كثيرة، تصيب بالنجس كل شيء يلامسها.

المرأة في المسيحية

بالنسبة للمسيحية، لم يختلف الحكم على المرأة. لكن المسيحية، كدعوة تجديدية، تبدو كثورة على اليهودية، وتختلف في تعاملها مع المرأة (مريم امرأة، والمجدلية امرأة، وهناك قصص لنساء حاورن المسيح). كما أن هناك نساء تبرعن بحلاهن للمسيح، ما يشير إلى ايمانهن به ورغبتهن بتغيير واقعهن.[34] لكن قوة الأعراف الاجتماعية فعلت فعلها، وأعادت المرأة إلى وضعها، على الرغم من بعض الاختلافات والتغييرات التي صاحبت الدين الجديد. وبعد ما اعتبرت المرأة في المسيحية بأنها مريم أم الرب، عادت لتصبح حواء المتهمة بالغواية ومحالفة الشيطان.[35] فقد سادت النظرة الدونية للمرأة في اوروبا المسيحية في العصور الوسطى. فقد أجاز القانون الإنجليزي للزوج قتل الزوجة أو تشويهها إذا ما أدانها بالزنا. كما رفضت العديد من القوانين الأوروبية المدنية شهادة المرأة وأجازت للرجل أن يضرب زوجته لتأديبها.[36]

---

[34] إنجيل لوقا، 8:3.

[35] محمود سعيد عمران. **حضارة اوروبا في العصور الوسطى**. (السويس: دار المعرفة الجامعية، 1998). ص. 289.

[36] المرجع السابق. ص. 289–290.

كما أن النص الإنجيلي الذي كتب بعد المسيح ركز على سيادة الرجل على المرأة، كما فرض عليها أن تغطي رأسها أثناء الصلاة، "على المرأة التي تصلي أن تغطي رأسها، والرجل لا يغطي رأسه لأنه صورة الله ومجده، أما المرأة فهي مجد الرجل".[37] وكذلك، انتقلت الأحكام والقصص التوراتية إلى المسيحية باعتبار التوراة كتابا مقدسا للمسيحية. إذ يضم الكتاب المقدس العهد القديم، وهو التوراة؛ والعهد الجديد، وهو الأناجيل. وقد استغلت النظرة الدونية للمرأة في اليهودية أبشع استغلال، لتتسرب إلى المسيحية.

لقد بقيت المرأة لعصور طويلة مجرد ملكية للرجل يستمتع بها. وانحصر دورها في الجنس والإنجاب، بحيث تنتهي أهميتها مع انقطاع الطمث، وكأنه إعلان بانتهاء انوثتها.[38]

المرأة في الإسلام

نقض القرآن الجريمة الأولى، ولم يحمل المرأة المسؤولية وحدها عن الطرد من الجنة، بل تحملها آدم معها، وأرجعها إلى خديعة الشيطان وقد ورد ذلك في الآية 120–121 من سورة طه. ولكن أثر التهمة التوراتية لم يزل، بل اعتمد المفسرون والفقهاء، في كثير من الأحيان، على القصة التوراتية في تبرير عدائهم للمرأة وضرورة حجبها وإبقائها بعيدة حتى لا تتكرر الخطيئة الكبرى. فقد ورد في تاريخ الطبري أن حواء كانت المسؤولة عن عصيان الله، وأن الله عاقبها بأن تتعذب في الحمل والولادة، وأدماها في الحيض، وجعلها سفيهة. وقد نقل الطبري رواية وهب بن منبه "لما أسكن الله تعالى آدم وزوجته الجنة ونهاه عن الشجرة

---

[37] إنجيل بولس، رسائل اكورنتوس، 11:37.

[38] نوال السعداوي. **المرأة والجنس**. (الإسكندرية: دار ومطابع المستقبل، 1990). ص.133.

وكانت... فلما أراد إبليس أن يزلهما دخل في جوف الحية... فأخذ من ثمر الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته. فجاء بها إلى حواء فقال: انظري إلى هذه الشجرة، ما أطيب ريحها، وأطيب طعمها، وأحسن لونها! فأخذت حواء، وأكلت منها، ثم ذهبت إلى آدم فقالت: انظر إلى هذه الشجرة ما أطيب ريحها وأطيب طعمها وأحسن لونها! فأكل منها آدم".[39] هذه القصة نفس القصة التوراتية، فحواء هي شيطانة آدم، تغويه بأكل الثمرة المحرمة، وتستخدم معه نفس الكلمات التي قالها الشيطان. هذه الجريمة الكبرى أخرجت الإنسان من حياة النعيم إلى حياة الشقاء، ومن السلام المطلق إلى حياة تملؤها الصراعات والقتل، وأول ذلك قتل ابن آدم لأخيه، والسبب كما يروي هنا الطبري المرأة. فقد قتل قابيل هابيل لأنه أراد الزواج بتوأمه الأجمل.[40]

وفي القرآن أيضا، يوجه الخطاب إلى المؤمنين والمؤمنات، هذه النظرة التي اعتبرت المرأة إنسانا كاملا كانت، بالتأكيد، تتناقض مع القيم السائدة، ودفعت العديد من النساء، بشكل خاص، إلى مساندتها ودعمها، ولعب دورا هاما منذ البداية.

من الضروري أن يرتكز الحديث عن وضع المرأة زمن الرسول على القرآن، كما أسلفنا، كأساس تشريعي موثوق. ولكن السيرة النبوية هي التي توضح كيف طبقت هذه التشريعات، وكيف تمت مواءمتها مع الواقع الذي يضع الرجل في مكان الصدارة. ولكننا لو سلمنا بما ورد في الكتب من أحكام نسبت للرسول لوصلنا إلى ضرورة حجب المرأة، وتحريم ظهورها. ومن أجل عدم الوقوع في اعتماد الروايات التي يمكن نقضها بمجرد التفكير البسيط، وجدت

---

[39] تاريخ الطبري ج1، 34-38

[40] المرجع السابق،ص. 46.

أن الوصول للحقيقة ممكن من خلال البحث في سيرة الرسول، وتعامله مع القضايا اليومية التي تبين حالة المرأة وحضورها في معظم القضايا الهامة، بعيدا عن الأحكام التي نسبت للرسول.

في بداية الدعوة الإسلامية، آمن بالرسول عدد قليل من النساء والرجال. حيث كان الرسول يعلمهم بشكل مباشر، ولم يذكر أي كتاب مسألة فصلهم رجالا ونساء. وقبل الهجرة كانت بيعة أهل المدينة للرسول، وكان معهم نساء، وقد اشتركن في البيعة.[41]

لقد حفلت كتب السيرة بأخبار النساء اللواتي كن يسألن الرسول عن قضايا كثيرة، وبشكل مباشر. كما ذكرت المصادر أن النساء كن يصلين في المسجد، وكن يتوضأن مع الرجال.[42] وقد ورد ذلك في الحديث 193 في كتاب الوضوء من صحيح الباخاري كما يلي: "حدثنا عبد الله بن يوسف قال: أخبرنا مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أنه قال: كان الرجال والنساء يتوضؤون زمن رسول الله جميعا". وقد حفلت كتب السيرة بأخبار نساء المدينة اللواتي كن يغلبن الرجال، حسب ما روي عن حديث عمر بن الخطاب، الأمر الذي لم تكن عليه نساء مكة (قريش).[43] ولم تكن مشاركة المرأة في الحياة الدينية والاجتماعية تثير استهجانا أو ممانعة.

تمر سيرة الرسول حافلة بمشاركات المرأة. فقد ذكر، في مصادر كثيرة، عن بداية نزول الوحي وخوف الرسول، ثم قيام خديجة بطمأنته. وبعد ذلك، وقوفها معه، ودعمه بمالها، ومشاركته أصعب الأوقات حتى وفاتها. وهي لم تكن مجرد زوجة، بل كان دورها واضحا

---

[41] المرجع السابق، ص. 364.

[42] أبو عبد الله الشافعي. **الأم**.(دار المعرفة: بيروت، 1995). ص. 21.

[43] هبة، شحرور. **المرأة والعمل السياسي رؤية إسلامية**. (رام الله: مركز بيت المقدس للأدب، 2006). ص. 114.

وقويا، وأبرز من دور الرجال من المسلمين الأوائل.[44] وقد كان غيابها فجيعة بالنسبة للرسول، خصوصا أنه تزامن مع غياب عمه أبي طالب، غير المسلم الذي دافع بكل قوته عن الرسول. ومن أشهر النساء المسلمات في عصر الرسول، أم عمارة نسيبة المازنية، التي بايعت الرسول مع الرجال، وشاركت في المعارك حتى بعد وفاة الرسول، وفقدت يدها في حروب الردة في معركة اليمامة، وفي معركة أحد ثبتت مع الرسول ضمن عشرة من المسلمين، منهم زوجها وولداها.[45]

من خلال استقراء بعض المصادر والمراجع، نجد أن حضور المرأة كان قويا زمن الرسول، كذلك مشاركتها في مختلف المجالات، ومطالبتها بحقوقها كإنسانة وكزوجة. وقد وجدنا أن حضورها كان مسلما به في الجوانب الدينية والسياسية. ولم يكن حجب المرأة في هذه المرحلة موضع نقاش، خصوصا في المرحلة الأولى. وقد برزت هذه المسألة في المدينة في عدة روايات تتعلق بنساء الرسول، أي في زمن كان فيه للرسول عدة زوجات. وإذا ما أشرنا أن الرسول طوال خمسة وعشرين عاما كان له زوجة واحدة، وقد تضمنت هذه الفترة نصف زمن دعوته تقريبا، لم يرد فيها أي إشارة إلى الحجب والحجاب، بل ارتبطت حتى في القرآن في الفترة التي كان فيها للرسول "نساء".

ويرد اسم عمر بن الخطاب في أكثر من موقع فيما يتعلق بالنساء، واحتجاجه على جرأتهن، ودعوته الرسول لحجب نسائه.[46] وفي تأكيده على ضرورة التمييز بين الأمة والحرة في مسألة

---

[44] تاريخ الطبري، ج1 ، ص. 327.

[45] محمد بهيم. **المرأة في حضارة العرب.** (دار النشر للجامعيين، 1962). ص. 18.

[46] عباس محمود العقاد. **مجموعة العبقريات الإسلامية.** (بيروت: المكتبة العصرية، 2008). عبقرية عمر. ص. 140.

اللباس وتغطية الرأس، بحيث منع ذلك عن الأمة.[47] فإن صح ذلك، فالمسألة ليست دينية، بل هي متعلقة بموروث اجتماعي. وإن لم يصح، تصبح روايات اللباس والحجاب والاحتجاب مشكوكا فيها في حياة الرسول. ويرى الجاحظ، في تحليل منطقي، أن كل ما لم يحرم بالقرآن وسنة الرسول، مباح، ولا يجوز أن نأخذ آراء الناس من استياء أو إعجاب كدليل على تحليل أو تحريم.[48] وحسب الجاحظ أيضا، فإن عمر بن الخطاب والحسن بن علي لم يفرضا الحجاب على المرأة، وقد ذكر قصة عمر عندما تزوج عاتكة ابنة زيد، وكانت قبله زوجة لعبد الله بن أبي بكر، وذكره حديثه إليها وإقناعه لها بالزواج منه بعد أن رفضت، بسبب وعد قطعته على نفسها لزوجها السابق، وعندما وافقت، لامها علي بن أبي طالب لعدم وفائها. ويقول الجاحظ، في قصته عن عاتكة:"...فخجلت، فأطرقت، وساء عمر رضي الله عنه ما رأى من خجلها... فقال يا أبا الحسن، رحمك الله، ما أردت إلى هذا؟ فقال: حاجة في نفسي قضيتها".[49] في قصته، نرى عمرا وعليا يتحدثان إلى المرأة دون حجاب، وهي تخجل من لوم علي، وعمر بن الخطاب يعاتب علي.

الحجاب في القرآن والسنة:

في سعيهم لإثبات فريضة الحجاب، ارتكز من خاض في هذا الموضوع على آيات قرآنية محدودة، يمكن حصرها في ما يلي:

---

[47] أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي. **الجامع في أحكام القرآن**. (القاهرة: دار الكتب المصرية). الجزء 14، ص244.

[48] عمر بن بحر الجاحظ. **رسائل الجاحظ**. (بيروت: دار ومكتبة الهلال، 2002) ص. 66.

[49] المرجع السابق، ص. 68.

(وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (النور:31).

(وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (النور:60).

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً) (الأحزاب:59).

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إلا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً) (الأحزاب:53).

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى) (الأحزاب:33).

في الآيات الست السابقة تعليمات قرآنية للنساء، مع تخصيص بعض هذه التعليمات لنساء الرسول فقط، مع تضمين لتوصيات للمسلمين بكيفية التعامل معهن. ولعل الآية 31 من سورة النور كانت الأكثر تفصيلا في تحديد لباس المسلمات، وتوضيح محددات الظهور أمام الرجال. وكذلك الآية 59 من سورة الأحزاب، التي حددت سببا لتمييز النساء المسلمات من

أجل أن يعرفن فلا يؤذين. وهو ما يشير إلى حادثة بعينها، تحدثت عن المضايقات التي تتعرض لها النساء في خروجهن لقضاء الحاجة في أماكن في الخلاء، بسبب عدم توفر المراحيض في المنازل في ذلك الوقت، والحجة التي كان يتذرع بها من يعترضهن بأنه ظنهن من الإماء. فكان تحديد اللباس من أجل نفي هذه الذريعة.[50] وقد ورد ذكر ذلك في أكثر من تفسير. وهنا، يمكننا التساؤل إذا كان الخلط بين الإماء والحرات سببا في التمييز باللباس، فهل ينتفي هذا السبب في عصرنا مع انتهاء ظاهرة العبودية؟

في العودة إلى الآية 31 من سورة النور، نجد التوصيات كما يلي:

غض البصر، وحفظ الفرج، وتغطية الجيوب، وعدم إبداء الزينة المخفية. وقد خاض العديد من المفسرين في تفسير هذه الآية عبر العصور حتى يومنا هذا، لتصل حد حرمة ظهور الوجه باعتباره زينة يمكن إخفاؤها. ومن أجل التوضيح أكثر، سنقوم بعرض بعض التفسيرات وصولا إلى تفسيرات معاصرة.

أولا – تفسير الطبري (ت سنة 310 للهجرة، 922 ميلادية):

بعد أن يقوم بذكر العديد من الروايات ، عن الحدود التي يمكن للمرأة أن تظهر بها، يبدي رأيه كما يلي: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عني بذلك: الوجه والكفان، يدخل في ذلك، إذا كان كذلك، الكحل والخاتم والسوار والخضاب.وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال في ذلك بالتأويل لإجماع الجميع على أن على كل مصل أن يستر عورته في صلاته، وأن للمرأة أن تكشف وجهها وكفيها في صلاتها، وأن عليها أن تستر ما عدا ذلك من بدنها، إلا

[50] إسماعيل بن عمر بن كثير. **تفسير القرآن العظيم**. تحقيق سامي بن محمد السلامة. (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع 1999). ج6، ص. 482.

ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أباح لها أن تبديه من ذراعها إلى قدر النصف. فإذا كان ذلك من جميعهم إجماعا، كان معلوما بذلك أن لها أن تبدي من بدنها ما لم يكن عورة، كما ذلك للرجال، لأن ما لم يكن عورة فغير حرام إظهاره، وإذا كان لها إظهار ذلك، كان معلوما أنه مما استثناه الله تعالى ذكره، بقوله إلا مظهر منها لأن كل ذلك ظاهر منها".[51] وهنا، يحسم الطبري برأيه أن الإجماع يجيز للمرأة إظهار وجهها وكفيها ونصف ذراعها.

ثانياً – تفسير ابن تيمية (ت سنة 728 هجرية، 1327ميلادية). وقد لقب بشيخ الإسلام، وهو من العلماء الذين ظهروا في عصور الانحطاط الإسلامي. قال في تفسير الآية 31 من سورة النور، في ما يتعلق بظهور المرأة: أنه لا يجوز أن يظهر من المرأة أي جزء من جسمها، لا وجهها ولا كفيها. ويجوز ظهور عينيها من أجل أن ترى. وذهب إلى ضرورة احتجاب المرأة، خالطا بين نساء الرسول وباقي النساء. وقد علل ذلك بأن الحجاب الذي فرض على نساء الرسول قدوة لباقي المؤمنات. وقد علل ابن تيمية كل ذلك بالفتنة التي تسببها رؤية المرأة. وبالقياس، سحب ذلك على الفتيان الذين لا شعر في وجوههم، بل قال إن الفتيان قد يكونوا أشد فتنة من النساء. وإذا ما عدنا إلى عصر بن تيمية، قد نجد أن المثلية كانت منتشرة في ذلك الوقت، وهو ما دفعه إلى الفتوى، وإلحاق الفتيان بالنساء. وقد شق

[51] محمد بن جرير الطبري. **تفسير الطبري**. تحقيق بشار معروف، عصام الحرستاني. (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994) ج 5. ص. 419.

الطريق بذلك للمفتين في عصرنا من التيارات السلفية المتشددة، التي تحرم كل ظهور للمرأة بالصوت والصورة.[52]

ثالثاً – تفسير ابن كثير (ت سنة 774 هجرية، 1372 ميلادية). أما ابن كثير، الذي جاء بعد الطبري بقرون وقريب العهد بابن تيمية، فنجده يسهب في تفسير الآية 31 من سورة النور، وما يعنيه غض البصر، وضرورة ستر الفرج، وعدم إظهار الزينة إلا الظاهر منها، وتغطية الصدر. ويوضح هنا بحديث عائشة عن نساء قريش، أنهن كن يظهرن وهن مبرزات صدورهن. ونفهم من ذلك أنهن كن يضعن غطاء الرأس ويسدلنه إلى الخلف، مع كشف الصدر والتفاخر به. فجاءت الآية لتفرض تغطية الصدر المكشوف، كما ذكر حديث عائشة عن أسماء عندما زارتها بثياب خفيفة، فقال لها الرسول إن على المرأة أن تغطي كل جسمها، عدا وجهها وكفيها. ثم أضاف ابن كثير بقوله عن هذا الحديث بأنه مرسل. ثم تحدث عن النساء وهن خارجات من المسجد مع الرجال، فطلب منهن الرسول أن يسرن على حافة الطريق، كما قال إنه لا يجوز للمرأة أن تذهب إلى المسجد وهي متطيبة، تفوح منها رائحة العطر. فنجده، هنا، يتجاوز الموضوع من طريقة اللباس إلى ممارسات سلوكية تخضع لتفسيرات مختلفة باختلاف الأزمنة، لكنها لا تستطيع إخفاء مشاركة المرأة، زمن الرسول، بكل جوانب الحياة الاجتماعية، والدينية، والسياسية.[53]

وإذا ما نظرنا إلى تفسير سورة النور اليوم، فإننا نجد أن المسألة قد زادت حدتها، ما جعل المرأة، في السعودية مثلا، تحتجب عن أبيها وأخيها، وتمنع من الخروج من المنزل إلا

---

[52] شيخ الإسلام ابن تيمية. **تفسير سورة النور**، تحقيق صلاح عزام. الرابط:
http://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=177197

[53] تفسير الطبري، ج 19 ص. 1

للضرورة، كما يجب عليها أن تغطي وجهها. ولا يجوز أن يسمع صوتها. كل ذلك بداعي درء الفتنة التي صارت ذريعة غير واضحة. فكيف يمكن الحكم على وجه أو صوت أو حتى صورة المرأة بأنها فتنة أو أنها ليست كذلك. وفي تسجيل صوتي للشيخ محمد بن صالح العثيمين، وقد عرف عنه الاعتدال والخروج قليلا عن الفكر الوهابي، نجد حديثه حول المرأة والعلاقة بينها وبين الرجل يرتبط بالشهوة والفتنة وذلك في تفسيره للآية 31 من سورة النور.[54]

محنة فاطمة بنت محمد

بعد وفاة الرسول، ثارت قضية خلافته، وقد اجتمع الأنصار لاختيار خليفة. وفي حادثة مشهورة، تدخل عمر بن الخطاب وأبو بكر وأبو عبيدة، وحسمت المسألة بمبايعة أبي بكر في سقيفة بني ساعدة. وبعد ذلك، بويع أبو بكر بيعة عامة. لم يحضر حادثة السقيفة أحد من بني هاشم.

وقد ذكر ابن قتيبة أن عليا بن أبي طالب رفض بيعة أبي بكر وقال: "أنا عبد الله واخو رسول الله... أنا أحق بهذا الأمر منكم".[55] "وحمل علي بن أبي طالب فاطمة على دابة، وخرج بها ليلا فطافت بمجالس الأنصار مجلسا مجلسا تسألهم أن يؤيدوا أبا الحسن، فما يطلب من حق جحد. فأجابوها جميعا: "يا بنت رسول الله، قد مضت بيعتنا لأبي بكر ولو أن زوجك وابن عمك سبق إلينا لما عدلنا به أحدا...". فكان علي يقول: "أفكنت أدع رسول الله في بيته ولم أدفنه، وأخرج أنازع في سلطانه؟" وكانت فاطمة تقول: "وما صنع أبو الحسن إلا

---

[54] تسجيل صوتي على الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=ai5ZR6NuiPg

[55] أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة. **الإمامة والسياسة**. (القاهرة: مطبعة النيل، 1904). ص. 18.

ما ينبغي، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم وطالبهم".[56] وقد حاول عمر بن الخطاب إجبار علي على البيعة، وأخذه إلى أبي بكر، وهدد علي بالقتل وأبو بكر ساكت لا يتكلم، فقال له عمر: " ألا تأمر فيه بأمرك، فقال: لا أكرهه على شيء ما كانت فاطمة إلى جنبه".[57] وقد ذكر الطبري أن بني هاشم جميعهم لم يبايعوا أبي بكر حتى وفاة فاطمة. ونجد عدم وضوح في رواية الطبري الذي يذكر أن فاطمة ابنة الرسول طلبت إرثها من أبيها من أبي بكر، لكنه رفض لأن الرسل لا يورثوا. وقد قاطعته فاطمة. وذكر أن "وجوه الناس" قد انصرفوا عن علي بعد وفاة فاطمة، فبايع، وبايع معه بنو هاشم.[58] وقد وردت روايات كثيرة عن رفض بني هاشم بيعة أبي بكر. ورغم بعض الاختلافات، إلا أنها أجمعت على أن بني هاشم قد بايعوا أبا بكر بعد وفاة فاطمة. إن هذه القصة تبين أن موقف فاطمة كان رافضا لخلافة أبي بكر، وقد جمعت بني هاشم حولها. ومع أن المؤرخين قد ذكروا محاولات لإجبار بني هاشم على البيعة، كما ذكر مؤرخو الشيعة روايات يصل أكثرها تطرفا إلى اتهام عمر بقتل فاطمة، إلا أن المؤرخين لم يذكروا دعوات للقتال بين بني هاشم وبين أبي بكر، على الرغم من محاولة أبي سفيان التحريض على محاربة أبي بكر. وقد ذكر الطبري أنه صرخ "أين الأذلان؟" ويقصد بذلك العباس وعلى بن أبي طالب. لكن شرعية أبي بكر لم تكتمل حتى وفاة فاطمة ومبايعة بني هاشم. وهنا، يمكننا القول أنه كان لابنة الرسول موقف واضح في رفضها لخلافة أبي بكر، وأنها عبرت عن هذا الموقف، بل ودعت إلى عدم مبايعته. وهذا موقف

---

[56] المرجع السابق، ص 20.

[57] المرجع السابق، ص 22.

[58] تاريخ الطبري، ج2، ص.511.

سياسي مارسته ابنة الرسول، وأكثر الناس قربا منه. وقد كان الناس يجتمعون في بيتها، كما ذكر الطبري، والناس هنا يقصد بهم الرجال من عائلتها وأقاربها. يستقوون بها، ويعجز الخليفة عن مواجهتها، فيتجنب إجبار بني هاشم على البيعة، على الرغم من محاولات عمر. وضع صعب لم تكتمل فيها شرعية أبي بكر لشهور حتى وفاة فاطمة، المرأة التي لم تمتنع عن الخروج على الخليفة، ولم تحتجب في بيتها، في موقف يؤكد حق المرأة بالمشاركة السياسية الكاملة قياسا بابنة الرسول.

وبالعودة إلى المصادر وقصة السقيفة، فقد ارتكزت حجة عمر بن الخطاب، في مواجهته للأنصار، على أن الرسول من قريش، ولذلك فهم أحق بالخلافة، وهذا طبيعي في ذلك الوقت من الزاوية القبلية. لكن عمرا عندما بايع أبا بكر، فقد وضع نهجا جديدا، إذ إنه لم يبايع ورثة الرسول، رغم وجود عمه العباس حيا، ووجود أبناء أعمامه. فهل كان غضب فاطمة سببه الخروج عن أعراف القبيلة، أم قناعتها بأحقيتها في وراثة أبيها. وقد كان زوجها علي يؤمن بحقه وزوجته بخلافة الرسول. لذلك لم يبايع أبا بكر. وقد ذكر الطبري أن عليا قال، في حوار له مع ابنه الحسن: "إن النبي قبض وما أرى أحدا أحق بهذا الأمر مني، فبايع الناس أبا بكر فبايعت كما بايعوا. ثم أن أبا بكر هلك وما أرى أحدا أحق بهذا الأمر مني. فبايع الناس عمر بن الخطاب، فبايعت كما بايعوا. ثم أن عمرا هلك، وما أرى أحدا أحق بهذا الأمر مني..."[59] وهذا يؤكد إيمان علي بأحقيته بالخلافة ويؤكد معارضته وفاطمة لبيعة أبي بكر بعد وفاة الرسول. يمكننا الخوض مطولا في هذا الموضوع. لكن لنفترض جدلا

[59] تاريخ الطبري، ج 3، ص. 837.

أن للرسول أبناء ذكورا، فهل كانت الصورة اختلفت؟ لقد تم إقصاء فاطمة وعلي في أول منافسة على الحكم في الإسلام. هذا الموقف، على ندرته، تكرر مع عائشة زوجة الرسول المفضلة بعد مقتل عثمان.

إقصاء المرأة في هزيمة عائشة

الرواية التاريخية تقول: عندما قتل عثمان بن عفان، لم تكن عائشة بنت أبي بكر في المدينة. وعندما سمعت الخبر لم تستغرب، لكنها عندما علمت أن البيعة أخذت لعلي، ثارت وقررت الخروج عليه، والمطالبة بأخذ الثأر لعثمان.[60] وقد انضم إليها من كان من بني أمية في مكة، وكذلك طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام. وقد قرروا أن يتوجهوا إلى البصرة من أجل جمع جيش يحاربون فيه عليا. وفي قول لها لوفد من البصرة يبين رأيها "ننهض في الإصلاح مما أمر الله عز وجل وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الصغير والكبير والذكر والأنثى فهذا شأننا إلى المعروف نأمركم به ونحضكم عليه ومنكر ننهاكم عنه ونحثكم على تغييره".[61] إذا، عائشة تؤمن بحقها في قيادة المسلمين وتحريضهم على مواجهة من ترى أنه على خطأ، حتى لو كان عليا بن أبي طالب الذي أصبح الخليفة، أي أنها لا تعترف بالخليفة، وتعارضه حتى بالقوة.

---

[60] سيف بن عمر التميمي. **الردة والفتوح وكتاب الجمل ومسيرة عائشة وعلي**. تحقيق: قاسم السامرائي. (الرياض: دار أمية للطباعة والنشر والتوزيع، 1997). ط2، ص. 266.

[61] المرجع السابق، ص. 287.

قادت عائشة المعركة، معها مجموعة من قريش على رأسهم مروان بن الحكم، وهو أحد مؤسسي الدولة الأموية، وأصل عائلة الخلفاء، ومعها عبد الله بن الزبير، وهو من الذين طالبوا بالخلافة، وقاد ثورة على بني أمية، انتهت بمقتله.[62] ودعت عائشة حفصة بنت عمر بن الخطاب للخروج معها، فوافقت حفصة. لكن عبد الله بن عمر بن الخطاب منعها من الخروج. فبعثت إلى عائشة: "إن عبد الله حال بيني وبين الخروج، فقالت: يغفر الله لعبد الله"[63]. يوضح ذلك، أن زوجات الرسول وبنات الخلفاء الأوائل، لا يحتجبن، بل يردن الخروج للقتال، ولولا منع عبد الله بن عمر أخته من الخروج مع عائشة لخرجت، وكذلك نرى رد عائشة، وكأن عبد الله من عمر اقترف ذنبا بمنعه حفصة من الخروج معها، فتقول غفر الله لعبد الله. ومع أن المؤرخين لم يذكروا مطالبات عائشة السياسية، لكن يمكن الاستنتاج أن خروجها لم يكن لمجرد الثأر لعثمان، وإنما لقناعتها بحقها بقيادة المسلمين بصفتها زوجة الرسول، وابنة الخليفة الأول.

لقد انتهت هزيمة عائشة في معركة الجمل بحادثة رمزية، فقد أمر علي بإعادتها إلى المدينة بصحبة أخيها محمد بن أبي بكر. وبمرافقة من أربعين امرأة[64]. في رواية الطبري كان تركيز واضح من أنصار علي بن أبي طالب في جدالهم مع أنصار عائشة على أن خروجها كان مخالفا لأمر ديني صريح لنساء الرسول بالبقاء في بيوتهن، وكذلك معايرتهم لأنصار عائشة بأنهم أخرجوا زوجة الرسول وأبقوا زوجاتهم في البيوت. انتهاء بحادثة إعادتها من قبل علي إلى المدينة بصحبة النساء. وقد أدرك بعض من قاتلوا مع عائشة، أن خروجها كان رغبة

[62] المرجع السابق، ص 273.

[63] المرجع السابق، ص. 271.

[64] المرجع السابق، ص. 268.

في السيطرة السياسية. يروي المسعودي أن عميرا الضبي قال لرجل قضم أذنه: "إذا صرت إلى أمك وقالت: من فعل بك هذا؟ فقل عمير بن الأهلب الضبي، مخدوع المرأة التي أرادت أن تكون أمير المؤمنين".[65]

قتل في معركة الجمل، حسب رواية الطبري، آلاف المسلمين من الطرفين. وانتهت بهذه المعركة الحياة السياسية لعائشة. وأضعفت مكانتها المعروفة، التي أخذها الخلفاء بعين الاعتبار، في استشارتها في كثير من الأمور الدينية.[66] لكن المسألة الأهم هنا، هي ما يلي: بعد وفاة الرسول، لم تحتجب عائشة، ولم تقر في بيتها، في مخالفة للتفسير السائد لآية عدم خروج نساء الرسول من بيوتهن. فهل خالفت عائشة الأمر القرآني الواضح؟ أم أنها امتلكت فهما مغايرا؟ قد يكون الحكم في صالح عائشة، إذا ما ذكر أن نساء الرسول، حتى في حياته، كن يشاركن في الأمور العامة، وكن يخرجن معه في غزواته. بل وأشرن عليه عندما وجد معارضة من المسلمين في قرار سياسي، كما حدث في صلح الحديبية. وفي حديث الطبري أن حفصة أرادت الخروج مع عائشة لولا منع أخيها لها.

إن قصة فاطمة وموقفها من خلافة أبي بكر، وقصة عائشة وحربها مع علي، وكذلك ما روي عن سكينة بنت الحسين، حيث خالطت الرجال، وحاورتهم في الفقه والشعر بما يشبه بمنتدى ثقافي أقامته في بيتها، يناقض التفسير التقليدي لآيات القرآن الذي ينادي بعزل المرأة، وفرض الحجاب عليها.

---

[65] المسعودي. **مروج الذهب**. ج2، ص. 288.

[66] تاريخ الطبري، ج 3، ص. 839– 870.

لقد فتحت معركة الجمل بابا واسعا للصراع على الخلافة، طوال فترة علي ومعاوية ويزيد بن معاوية، ولم تستقر الأمور حتى خلافة عبد الملك بن مروان. فترة طويلة اقتصرت على أخبار الخلفاء، والقادة والخارجين على الدولة، وكلهم من الرجال. لقد تم إقصاء النساء بهزيمة عائشة. ليعدن إلى الظهور، بقوة، ولكن كإماء في قصور الحكام والقادة والأثرياء.

خاتمة

تبين في الفصل الأول، أن المرأة في بداية الدعوة الإسلامية كانت شريكة للرجل، وقد تعرضت كما الرجل للعنف الذي مارسته قريش في مكة على المسلمين الأوائل.وذكرت في العديد من الآيات، وخوطبت كما الرجل، كما برئت من الخطيئة الكبرى، التي تسببت في خروج آدم من الجنة على خلاف الديانات السابقة. لكن الأمر تغير مع تحول المجتمع الإسلامي حديث التكوين، إلى مجتمع عسكري في مواجهة التهديد الدائم. وبعد وفاة الرسول وانخراط المسلمين في حروب تراجع وضع المرأة خصوصا مع الازدياد في أعداد الإماء، وارتفاع قيمة الرجال المحاربين. وبرزت مسألة الحجاب عندما خرجت أم المؤمنين عائشة على علي بن أبي طالب وهزيمتها في معركة الجمل. هذه المعركة التي سقط فيها الكثير من المسلمين كان أبرزهم اثنين من المبشرين بالجنة الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله، خطئت فيها عائشة بعد هزيمتها لأنها لم تلتزم بحجابها في بيتها. لقد شكلت هزيمة عائشة هزيمة للمرأة، التي أخذت بالاختفاء من الحياة السياسية في المجتمع العربي.

الفصل الثاني

أثر الجواري والإماء في وضع المرأة

ملك اليمين

بعد الهجرة، وما إن استقر الرسول بالمدينة، حتى بدأ بمحاربة قريش، من خلال قطع طريق التجارة عليها، ومهاجمة قوافلها. فكانت الغزوة الأولى قبل انتهاء سنة على الهجرة، وهي الغزوة المسماة بغزوة الإيواء، والتي لم يقع فيها قتال.[1] ثم كانت العديد من السرايا الغزوات وصولا إلى معركة بدر التي انتصر فيها المسلمون. أسفرت معركة بدر عن وقوع أسرى بيد المسلمين. وبعد خلافات حول مصير الأسرى، تطرق المؤرخون إلى الخلاف في الرأي بين عمر والرسول، إذ رأى عمر ضرورة قتل الأسرى، لكن الرسول قبل الفدية فيهم، بحيث تراوحت فدية الأسير ما بين أربعة آلاف درهم إلى ألف درهم.[2] بعد هذه المعركة، برزت مسألة الأسرى وكيفية التعامل معهم. وتوالت الغزوات وصولا إلى غزوة بني قريظة، التي تم فيها قتل الرجال وسبي النساء والأطفال، وأخذ أموالهم غنيمة. وتم توزيع النساء على المقاتلين، وقد كانت ريحانة القرظية من نصيب الرسول.[3] في هذه الغزوة، طبقت الأعراف السائدة بتوزيع السبايا على المحاربين، ليصبحن مملوكات لهم. عرض الرسول على ريحانة أن يحررها ويتزوجها، لكنها رفضت وبقيت ملك يمينه.[4]

---

[1] تاريخ الطبري. الجزء 1. ص. 360.

[2] ابن هشام.**السيرة النبوية**. القسم الأول، ص. 660.

[3] المرجع السابق، القسم الثاني، ص. 245.

[4] ابن هشام.**السيرة النبوية**. القسم الأول، ص. 245.

وفي غزوة بني المصطلق، غنم المسلمون عددا كبيرا من السبايا، وقد قسم السبي بين المقاتلين، وكانت منهم جويرية بنت الحارث، وهي كما يقول ابن هشام جميلة، فجاءت من نصيب ثابت بن قيس. عرضت جويرية عليه فداء نفسها فوافق، واستعانت لتكمل فديتها. وحسب رواية عروة بن الزبير تقول عائشة: "والله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي، فكرهتها، وعرفت أنه سيرى منها صلى الله عليه وسلم ما رأيت..."[5] – تقصد جمالها–، وحصل ما خافت منه عائشة. فقد تزوج الرسول بجويرية بنت الحارث بعد أن حررها. إن خوف عائشة يبين أن ثقتها بمكانتها قد اهتزت، فانتصارات المسلمين تتوالى، والسبايا يزداد عددهن. وخوف عائشة، الزوجة الأثيرة عند الرسول، يشكل مؤشرا لحالة نساء المسلمين، الذين جرت بأيديهم أموال الغنائم، وأصبح لديهم فرص في –اختيار زوجات أو إماء صغيرات وجميلات ينافسن زوجاتهم. وبعد هذه المعركة، واجهت عائشة محنتها الأشد والمعروفة بحادثة الإفك. وكاد الرسول أن يطلقها، وقد استشار عليا بن أبي طالب في أمرها فألمح له بطلاقها. وقد ذكر بن هشام أن عليا استجوب جارية عائشة. وقد أخبرته أنها لم تر ما يثير شبهتها، فضربها علي ضربا شديدا.[6] إن جرأة من اتهم عائشة في حادثة الإفك تؤشر على الضعف الذي أصاب مكانة النساء كزوجات، فعائشة الزوجة الأثيرة عند الرسول، تلوك سيرتها الألسن، وتحكى قصتها في المجالس.[7]

قصة جويرية وقصة عائشة تبين محنة النساء، فالسبايا يتحولن إلى ملك يمين، والزوجات يصبحن أرقاما عند رجال يملكون الحق بعدد غير محدود من نساء الغنائم. وبعد أن كانت

---

[5] المرجع السابق، ص. 295.

[6] المرجع السابق، ص. 301.

[7] علي محمد الصلابي. **غزوات الرسول** (القاهرة: مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، 2007). ص. 190.

نساء المسلمين يشاركن في المعارك، ويلعبن فيها دورا أساسيا في مساعدة المقاتلين وعلاج الجرحى، وصولا إلى حمل السيف والدفاع عن الرسول نفسه، كما حدث في معركة أحد عندما حلت الهزيمة بالمسلمين، فصمدت أم عمارة، وساهمت في حمايته،[8] فقد أصبحت المعارك تجلب لهن المنافسات والضرائر.

وفي معركة حنين، سبيت نساء هوازن، لكن القبيلة أسلمت، وجاء وجهاؤها إلى الرسول يسترحمونه ويطلبون منه تحرير السبي. وكان ذلك بعد تقسيم الغنائم، فخيرهم بين مالهم وعيالهم، فاختاروا أن يرد لهم عيالهم. وكما ذكر المؤرخون، فقد أطلق الرسول نصيبه من السبي، وطلب من المسلمين أن يرحموا هوازن ويردوا نساءهم وأبناءهم. ويظهر جليا أن طلب النبي، رغم إسلام هوازن، لم يكن ملزما. فقد استجاب المهاجرون والأنصار للرسول، لكن القبائل التي قاتلت إلى جانبه رفضت رد السبي، فقام الرسول بدفع الأموال بدلا من الغنائم لكل من رفض تحرير سبيه.[9] في هذه المعركة كان السبي كبيرا، وشعر المهزومون بالذل لمعرفتهم بقانون الحرب، الذي يجعل من السبية مملوكة لسابيها، له الحرية في بيعها أو استعبادها للخدمة أو المتعة، ويجوز له الاتصال الجنسي بها بعد أن تلد –إن كانت حاملا– أو تحيض حيضة واحدة. وقد وضع هذا القانون زمن الرسول، وترك العدد المسموح به، تحت عنوان ملك اليمين، من السبايا والمملوكات مفتوحا.[10]

---

[8] المرجع السابق. ص. 130.

[9] أبو الحسن الماوردي. **الأحكام السلطانية**. تحقيق أحمد البغدادي (الكويت: مكتبة ابن قتيبة، 1989). ص. 172.

[10] المرجع السابق، ص. 173.

حروب الردة

فتح الرسول مكة، وحقق انتصارات كبيرة على القبائل العربية القريبة والقوية في معركة حنين. وبعد أن حطم الأصنام في الكعبة، وأنهى العادات الوثنية التي كانت تمارس فيها، نزلت سورة براءة في السنة التاسعة للهجرة، وقد كان الرسول قد كلف أبا بكر بإمارة الحج، فأرسل عليا له بسورة براءة. فكانت إعلان حرب على من لم يدخل الإسلام من القبائل العربية، وأعلن أبو بكر القواعد الجديدة التي بعثها الرسول: "لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، وينبذ إليهم عهودهم إلا من كان ذا عهد مقدر فعهده إلى مدته"[11]. بعث الرسول معاذ بن جبل إلى اليمن، ووزع رسله إلى الملوك في البلدان المختلفة يدعوهم إلى الإسلام. وكان ذلك إيذانا بانطلاق الدعوة خارج حدود الجزيرة العربية.[12]

مات الرسول، وبويع أبو بكر خليفة له. وبوفاته حدثت هزة كبيرة، أثرت على معظم خلافة أبي بكر. فقد رفضت معظم القبائل دفع الزكاة، وأصر أبو بكر على محاربتها حتى تؤدي ما كانت تؤديه إلى الرسول. وسميت حروب أبي بكر بحروب الردة، وهذا الاسم يدل بوضوح على اعتبار القبائل التي رفضت دفع الزكاة مرتدة عن الدولة الإسلامية. اعتبر أبو بكر سورة براءة بمثابة إنهاء لأي عهد مع من لم يدخل الإسلام، فإما الإسلام أو الحرب. ودفع الزكاة هو دليل دخول القبيلة في الإسلام.[13] أصر أبو بكر على إرسال جيش أسامة إلى وجهته التي حددها الرسول، لكن هذا الجيش تحول إلى حملة لتهديد المرتدين وإظهار قوة

---

[11] مسلم بن حجاج، **صحيح مسلم**. (الرياض: دار طيبة، 2006). ص. 613.

[12] أبي الفداء إسماعيل بن كثير. **الفصول في سيرة الرسول**. تحقيق: محمد العبد. (دمشق، المدينة المنورة: مكتبة علوم القرآن، مكتبة التراث). ص. 215.

[13] إلياس شوفاني. **حروب الردة**. (بيروت: دار الكنوز الأدبية، 1995). ص. 62.

المسلمين.[14] وفيما بعد كلف أبو بكر خالداً بن الوليد بقيادة جيش المسلمين لمحاربة المرتدين، وحقق خالد انتصارات كرسته كأهم قائد عسكري. ونتيجة لحروب خالد، تدفقت الغنائم إلى المدينة أموالا وسبايا. لكن خالدا أثار الكثير من الاستياء عندما قتل مالك بن نويرة، وتزوج زوجته قبل أن تنه عدتها.[15] لكن أبا بكر اعتبر محاربة المرتدين كمحاربة الكفار، فيه سفك للدماء، وسبي للذرية، واغتنام للأموال.[16]

بدأت ظاهرة ملك اليمين في عهد الرسول كما أسلفنا، وازداد عدد الإماء في بيوت المسلمين، وانتشرت هذه الظاهرة، بشكل واسع، مع كل فتح جديد، أو نصر في معركة يجلب الغنائم والسبايا. ولم يخل بيت من العبيد. وبسبب ذلك، أصبح تنقل الحرات وخروجهن من المنازل يعرضهن للمضايقات. ومن أجل تمييزهن فرض عليهن تغطية رؤوسهن، ولاحقا وجوههن.[17] وفي وقت مبكر، وضعت الأحكام المتعلقة بتملك الإماء وكيفية التعامل معهن، وأحكام الزواج بهن، وطلاقهن، والتعامل مع الأمة التي تنجب، وجواز الجمع بين الأمة وأمها، أو ابنتها، أو اختها، وغير ذلك من المحارم. واللافت أنه لم يتم تحريم الجمع بين الأمة ومحارمها بشكل قاطع، بل كره ذلك حسب الإمام مالك، ومنها أن رجلا سأل عثمان بن عفان "عن الأختين من ملك اليمين، هل يجمع بينهما، فقال عثمان: "أحلتهما آية، وحرمتهما آية. فأما أنا فلا أحب أن أصنع ذلك".[18] ولعل عثمان يشير بذلك إلى الآية 23 من سورة

---

[14] المرجع السابق. ص. 149.

[15] المرجع السابق. ص. 159.

[16] الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام. **كتاب الإيمان**. تحقيق محمد ناصر الدين الألباني. (الرياض: مكتبة دار المعارف للنشر والتوزيع، 2000). ص. 17.

[17] عبد السلام الترماني. **الزواج عند العرب**. (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1998). ص. 118.

[18] مالك بن أنس. **موطأ مالك**. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (مصطفى البابي الحلبي، 1985). ص. 538.

النساء التي تحرم الجمع بين الأخوات، والآية 6 من سورة المؤمنين التي تحلل ملك اليمين بدون استثناءات.

ولم يقتصر الأمر على الإماء في بيوت أسيادهن، فقد تساهل المشرع في لباس الأمة أثناء عملها، أو في خروجها من البيت، فعورتها هي عورة الرجل من الركبة إلى السرة. وقد كانت عملية شراء الجواري تتم بعد تفحصهن، والنظر إلى كل جزء من أجسادهن حتى روي أن أبا موسى الأشعري قال على المنبر: "ألا لا أعرفن أحدا أراد أن يشتري أمة، فينظر إلى ما بين السرة والركبة لا يفعل ذلك أحد، إلا عاقبته".[19] وقد روي أن عمرا بن الخطاب رأى أمة غطت رأسها، فضربها بالسوط، ونزع الغطاء عنها، وقال: "يا لكعاء، اكشفي رأسك لا تتشبهي بالحرائر". [20]

ويظهر من ذلك انتشار الإماء في البيوت وفي الشوارع. لهن تخصصات مختلفة، فالجميلات الصغيرات منهن يستخدمن للجنس، ومن ليس لها نفس الحظ، تصبح خادمة منزل، أو تعمل بمهن مختلفة لصالح سيدها أو سيدتها. وقد بلغ الأمر أن المرأة كانت تسترضي زوجها، بأن تهدي إليه جارية جميلة. وقد شاع مصطلح الجارية، الذي كان يطلق على الفتاة التي تباع وتشترى في سوق النخاسة.[21] وقد ذكر ابن الجوزي أن زوجة سليمان بن عبد الملك اشترت له جارية كان مولعا بها قبل أن يصبح خليفة، وأهدتها له.[22] وكذلك

---

[19] يحيى بن أبي الخير اليمني. **البيان في مذهب الشافعي**. تحقيق: قاسم محمد النوري (بيروت: دار المنهاج، 2000). المجلد 2، ص. 119.

[20] المرجع السابق، ص. 119.

[21] سلاف فضل الله حسن. **دور الجواري والقهرمانات في دار الخلافة العباسية**. (دمشق: صفحات للدراسات والنشر، 2013). ص. 33.

[22] أبو الفرج بن الجوزي. **أخبار النساء**. تحقيق بهاء عبد الكريم (بيروت: دار النديم للطباعة والنشر، 1991). ص. 175.

وردت أخبار عن نخبة المسلمين الذين يشترون الجواري ويهدونها إلى أصدقائهم. وذكر ابن الجوزي أيضا أن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، اشترى جارية بأربعين ألف درهم، وأهداها إلى صديق له كان معروفا عنه أنه يحب هذه الجارية.[23] وفي هذه الأجواء، تجاوز أصحاب النفوذ كل الحدود. وصاروا يسعون للحصول على أية امرأة تعجبهم، حتى وإن كانت زوجة لرجل آخر. فقد روي أن امرأة أعجبت مروان بن الحكم في فترة حكم معاوية بن أبي سفيان، فحبس زوجها، وأجبره على طلاقها وتزوجها، وتمكن الزوج من الوصول إلى الخليفة، الذي أمر مروان بطلاقها، وإرسالها إليه، وعندما رآها أعجبته، وعرض عليها الزواج، لكنها رفضت، واختارت الرجوع إلى زوجها.[24]

لقد وجدت المرأة الحرة نفسها، منذ تدفق الأموال والسبايا على المسلمين، في وضع صعب، فعليها منافسة نساء، غالبا ما يكن أكثر شبابا وجمالا، والأعداد غير محدودة. ومن الجواري من قد تصبح زوجة، إذا أعجبت الرجل، وهي، بالتالي، قد تدفعه إلى طلاق إحدى زوجاته إذا كان لديه أربع زوجات، وحتى حد الأربع زوجات وجد من يفسر آية مثنى وثلاثا ورباع تفسيرا خاصا يصل بالعدد إلى ثماني عشرة زوجة.[25]

الجواري في قصور الخلفاء

---

[23] المرجع السابق، ص. 31.

[24] المرجع السابق، ص. 23.

[25] عبد السلام الترماني. **الزواج عند العرب**. ص. 185.

اشتركت النساء قبل الإسلام في الحروب. فقد كانت القبائل تحضر النساء لتشجيع المقاتلين، وكان المقاتلون يستبسلون في قتالهم لتجنيب نسائهم ذل السبي والاستعباد.[26] وقد كانت النساء يفضلن الموت على السبي. وهناك قصص عن نساء حاولن الانتحار بعد سبيهن.[27] واشتهرت قصة عروة بن الورد مع زوجته سلمى الكنانية. فقد سباها وأعتقها، ثم تزوجها. وبقيت عنده سنوات، ورزق منها بأبناء. وقد احتالت عليه لتعود إلى قبيلتها، رغم حبها له واعتبارها له أفضل زوج يمكن للمرأة أن تناله. ومع ذلك، فقد قالت له إن كل يوم مر عليها في قومه، كان الموت فيه أحب إليها فيه من الحياة.[28]

ولوقت لم يستمر طويلا، حافظت الزوجة على مكانتها. لكن، ومع تدفق السبايا، وازدياد عدد الجواري عن طريق الشراء والغنائم، أخذت مكانة المرأة بالتراجع، وأصبح تعدد الزوجات وامتلاك الإماء أمرا شائعا خصوصا في أوساط النخب. فقد ذكر أن الحسن بن علي بن أبي طالب تزوج تسعين زوجة، والمغيرة بن شعبة كان يطلق زوجاته الأربع دفعة واحدة ويتزوج غيرهن، وبلغ عدد من تزوج بهن خمسا وتسعين زوجة.[29] ومن الطرائف رجل طلق خمس نساء في يوم واحد، هن زوجاته الأربع وزوجة جاره التي تدخلت في الحوار الذي أدى إلى تطليق زوجاته، فصرخ عليها أنها طالق إن قبل زوجها، فأجابه زوجها أنه قبل.[30] اشتهرت روايات وأحاديث تقلل من قيمة المرأة. فالنساء ناقصات عقل، يسئن لأزواجهن لأسباب

---

[26] عبد الله عفيفي. **المرأة العربية**. ص. 19.

[27] المرجع السابق. ص. 41.

[28] المرجع السابق. ص. 43.

[29] عبد السلام الترماني. **الزواج عند العرب**. ص. 192

[30] أحمد بن عبد ربه. **العقد الفريد**. تحقيق عبد المجيد الترجيني. (بيروت: دار الكتب العلمية، 1983) ج7،ص. 129.

تافهة، فهن "يكثرن اللعن ويكفرن العشير".[31] وتصبح قيمتهن بقيمة العبد. فالمرأة العاصية لزوجها مثلها مثل العبد الآبق، لا صلاة لهما.[32] والمرأة إذا خرجت، وشم منها رائحة عطر فهي زانية.[33]

ومع أن الأمويين لم يستخلفوا أبناء الإماء، فمسلمة بن عبد الملك، الفارس الشجاع والقائد العسكري، تجاوزته ولاية العهد؛[34] لكن الإماء ارتفعت قيمتهن، ووصلت قيمة جارية عند سليمان بن عبد الملك حسب رواية ابن عبد ربه إلى (مليون درهم)، وكان يحبها ويغار عليها، حتى أنه منعها من سماع الغناء بقوله إن النساء إذا سمعت الغناء تثار شهوتهن.[35] هذا التفسير الذي ورد على لسان سليمان بن عبد الملك، يبين انحدار قيمة النساء عند سليمان، واقتصار دورهن على الجنس، الذي يرعب الرجل بسبب العدد الكبير لنسائه. وكذلك، تحظى المرأة الجميلة والجريئة بقيمة عالية عند السيد. وسرعان ما تفوقت المملوكات والجواري على الزوجات. فقد امتلأت بهن القصور ومن جنسيات مختلفة، فارسيات وروميات، أرمنيات وأثيوبيات، من كل نواحي العالم القديم، آسيا وأوروبا وإفريقيا.

وبعد أن كانت الأمة تحاول تقليد الحرة في لبسها وسلوكها، صارت النساء الحرائر يقلدن الجواري في أزيائهن، مهما علا مركز الحرة؛ فقد انجذب رجال العصر العباسي إلى أزياء النساء اللاتي يردن عليهم من كل أنحاء العالم القديم.[36] وقد روي أن الرشيد امتلك ألف

---

[31] أبو عبيد القاسم بن سلام. **كتاب الإيمان**. ص. 75.

[32] المرجع السابق. ص. 83.

[33] المرجع السابق. ص. 93.

[34] إبن عبد ربه، **العقد الفريد**، ص. 143.

[35] المرجع السابق، ص. 74.

[36] أبي الحسن بن الحسن الصابي. **الوزراء**. تحقيق: عبد الستار أحمد فراج. (مكتبة الأعيان). ص. 175,

جارية يتسابقن على نيل رضاه، من خلال مهاراتهن، وثقافتهن، وإتقانهن للفنون.[37] وكانت الجواري ذوات المكانة، يملكن المال لاستئجار معلمين لهن في المجالات المختلفة، التي تكسبهن حظوة عند أسيادهن. ولم تكن الجواري يتورعن عن شيء في اكتساب المكانة. وقد كانت براعتهن في الغواية، واستغلالهن للمهارات التي يمتلكنها خصوصا الجنسية منها، سببا في رفع مكانتهن. وفي نفس الوقت، لم يكن لدى الزوجات العربيات اللواتي تحيط بهن أسوار شاهقة من العادات والتشدد المفروض عليهن، أي فرصة في المنافسة بينهن وبين الجواري.[38] وعندما تموت زوجة الخليفة أبو جعفر المنصور، يشيعها زوجها، لكنه لا يحزن عليها كثيرا، فهو لا يملك نفسه من الضحك لطرفة حكاها أحد مقربيه، ولعل ضحك الخليفة في هذا الموقف يتوافق مع جرأة من قال الطرفة.[39]

وقصة الخيزران جارية المهدي، الخليفة العباسي الثالث، التي استطاعت أن تصبح زوجة وتأخذ ولاية العهد لأبنائها، على الرغم من أن زوجة الخليفة هي ابنة عمه مؤسس الخلافة أبي العباس السفاح. فبعد تعيين الهادي وليا للعهد، قام المهدي بإعتاق الخيزران والزواج منها، فهي أم ولي العهد. وقد قالت الخيزران لاحقا أنها كانت تغار من جارية اسمها مكنونة، وكانت تلك الجارية جميلة وتجيد الغناء، اشتراها المهدي عندما كان وليا للعهد، مقابل مئة ألف درهم.[40] أي إنها لم تكن تخشى من الزوجات الحرات، مهما كان نسبهن عاليا، وحتى إن كن من بنات الخلفاء. صارت الخيزران أما لخليفتين، أحدهما الرشيد، أشهر

---

[37] يحيى وهيب الجبوري. **النساء الحاكمات من الجواري والملكات**. (عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2010). ص. 10.

[38] المرجع السابق. ص. 10.

[39] تاج الدين أبي علي بن أنجب بن الساعي. **جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء**. تحقيق: مصطفى جواد. (دار المعارف بمصر). ص. 42.

[40] يحيى الجبوري، **النساء الحاكمات من الجواري والملكات**. ص. 48.

خلفاء بني العباس، وقد عرفت بتدخلها بالحكم. ففي خلافة ابنها الهادي، كانت تستقبل في بيتها أهم رجال الدولة، على الرغم من معارضة ابنها الخليفة، وقوله لها: "لئن وقف ببابك أمير لأضربن عنقه. أما لك من مغزل يشغلك، أو مصحف يذكرك، أو سبحة؟...".[41] لكنها لم تستجب لطلب ابنها الخليفة؛ فغضب، وأقسم أن يضرب عنق من يقف ببابها من قادته ورجال دولته. وبذلك عزلت الخيزران. ولكن هذا العزل لم يدم طويلا، فقد توفي الهادي صغيرا لم يتجاوز الرابعة والعشرين، بعد حكم قصير لم يدم سوى عام ونصف. وقد ذكر الكثير من المؤرخين أن موته كان اغتيالا بتدبير من أمه، وعلى يد جواريه اللواتي وضعن الوسائد على رأسه وجلسن عليها.[42] وقال ابن الأثير أن الهادي أراد خلع هارون الرشيد من ولاية العهد، فخافت الخيزران على الرشيد من القتل، فأمرت الجواري بقتل الهادي.[43] وبتولي الرشيد، ولم يكن تجاوز الثانية والعشرين، ارتفعت مكانة الخيزران، وارتفعت مكانة البرامكة، فقد كان الفضل بن يحيى قد رضع من أم الرشيد، والرشيد رضع من أم الفضل بن يحيى. وكان الهادي قد حبس والد الفضل، وأراد قتله. فلما مات الهادي، أخرجه الرشيد من السجن، وسلمه الوزارة.[44]

وفي عصر الرشيد، امتلأ القصر بالجواري، وكتبت عن حياته الأساطير، ومنها قصة أخته العباسة بنت المهدي، التي امتلكت صفات الجواري، بعلمها ومرحها، ومشاركتها الرشيد في لهوه، وحضورها مجالسه. وقد ذكر بن الأثير أن الرشيد كان لا يصبر عن جعفر بن يحيى

---

[41] جلال الدين السيوطي. **تاريخ الخلفاء**. (بيروت: دار بن حزم، 2003). ص. 223.

[42] المرجع السابق. ص. 52.

[43] ابن الأثير. **الكامل في التاريخ**. (بيروت: دار الكتب العلمية، 1987). المجلد 5. ص. 273.

[44] المرجع السابق. ص. 277.

وعن اخته العباسة، وكان يحضرهما إلى مجلس الشرب. فقال لجعفر: "أزوجكما ليحل لك النظر إليها. ولا تقربها فإني لا أطيق الصبر عنها".[45] لكن جعفر لم يلتزم بأمر الخليفة فحملت منه العباسة، وأرسلت طفلها إلى مكة خوفا من الرشيد، لكن الخبر وصل إلى الرشيد. وقد ذكر ابن الأثير أن البرامكة كانوا قد استبدوا بالدولة وامتلكوا الضياع، وأسرفوا في إنفاق الأموال. وضرب مثلا أن جعفر البرمكي، بنى دارا كلفته عشرين ألف ألف درهم. وبعد أن تمكن الرشيد من الحكم، تخلص من البرامكة بقتلهم ومصادرة أموالهم.[46] واستمر نفوذ الجواري بالتصاعد في عهد الرشيد، وعهد من جاء بعده من الخلفاء. وقد ذكر بن حزم أن خلفاء بني العباس كانوا أبناء جوارٍ، ما عدا أبا العباس السفاح، والمهدي والأمين. وفي الأندلس، كانت أمهات كل خلفاء بني أمية من الجواري.[47] وقد ذكر أن زبيدة زوجة الرشيد اشترت له عشر جوارٍ حتى تلهيه عن حبه لجارية له اسمها دنانير. وكأن ذلك أقصى ما تستطيع لحماية نفسها من نفوذ جارية يعشقها زوجها.[48] لقد تدفقت الجواري في العصر العباسي الأول، باتساع الفتوحات، وأصبح عدد السبايا هائلا، خصوصا بعد المعارك الكبرى، التي تفتح فيها بلاد جديدة. وفي هذا الوضع، ربما وصل سعر الجارية الجميلة المدربة أقل من مائة دينار، وبذلك يسهل الحصول عليها ليس من قبل الخلفاء وحسب، ولكن من قبل آخرين من الذين جرت الأموال بأيديهم هم أيضا.[49]

---

[45] المرجع السابق. ص. 327.

[46] المرجع السابق. ص. 328.

[47] ابن حزم الأندلسي. **رسائل ابن حزم الأندلسي**. تحقيق إحسان عباس. (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1987) ج2، ص. 119-122.

. [48] سعيد أبو العينين. **حكايات الجواري في قصور الخلفاء**. (القاهرة: دار أخبار اليوم، 1998). ص. 7.

[49] المرجع السابق. ص. 25.

وقد روى الجاحظ أن الجواري كن يتفوقن بالعدد على الحرات، وأن الجواري كن من الهدايا النفيسة التي يتهادى بها الأثرياء. استمر الحال بعد الرشيد، فولداه الأمين والمأمون مغرمان بالجواري. وفي هذا العصر، ظهر الجاحظ الذي نقل لنا صورة عصره، وحالة النساء الحرات والإماء. لم يعرف العرب الحجاب، كما يقول الجاحظ، ويقول أيضا أن النساء كن يطفن بالكعبة عاريات، وذلك قبل الإسلام. وكما يرى الجاحظ، فعمر بن الخطاب كان أكثر الرجال غيرة، ويروي عن الرسول أنّه قال: "إني رأيت قصرا في الجنة، فسألت: لمن هذا القصر؟ فقيل: لعمر بن الخطاب. فلم يمنعني دخوله إلا لمعرفتي بغيرتك". ومع ذلك فإن عمر لم يمنع النظر والحديث إلى النساء.[50] كما يورد الجاحظ أن الحسن بن علي لم يحرم النظر إلى النساء، وكذلك الفقيه الشعبي، ومعاوية بن أبي سفيان، وهو أحد الأئمة، كما يقول الجاحظ. وبالنسبة للإماء، فقد كان معاوية يأتي بالجارية من جواريه، فيجردها من ثيابها بحضرة جلسائه، ويهديها إلى أحدهم، لأنه لا يستطيع أن يهديها إلى يزيد بعد أن كانت له.[51]

وانتشرت الجواري عند بني أمية، لكن انتشارهن الواسع كان في العهد العباسي الذي عاش فيه الجاحظ. وحسب رأيه، فإن الرجال يفضلون الإماء، فهم يملكونهن بعد أن اطلعوا على كل شيء فيهن. بينما الزواج من الحرات يتم دون رؤيتهن، ولكنهن يوصفن للرجل من نساء أخريات.[52] والقيان يتم تدريبهن على صنوف الغناء، والشعر، والإمتاع، وكذلك يدربن على الغواية وطرق اجتذاب الرجال. فالجارية ".. لا تنفك من الدراسة لصناعتها منكبة عليها...

---

[50] عمر بن بحر الجاحظ. **رسائل الجاحظ**، ص. 66-68.

[51] المرجع السابق. ص. 70.

[52] المرجع السابق. ص. 101.

وهي مضطرة لذلك.. لأنها إن جفتها تفلتت، وإن أهملتها نقصت...".[53] إذا، كما يقول الجاحظ، فقد كان في عصره مدارس ومدربون لتعليم الجواري كل أنواع الفنون التي تجذب الرجال. في الوقت الذي فرض على الحرات، الحجاب في اللباس، والاختباء في المنازل.

احتجاب المرأة الحرة في مرحلة ازدهار الإماء

على الرغم من عبودية الإماء، فإن حريتهن في اللباس والاختلاط، وفي ممارسة الفنون بمختلف أشكالها كانت واسعة. واستنادا إلى تحديد عورة الأمة بما بين السرة والركبة، فقد امتلكت حرية كبيرة في اختيار أزيائها وتصميمها بالشكل الذي يبرز جمالها. في الوقت الذي حرمت فيه الحرة من مجرد الظهور. وإن اضطرت للخروج، أو الظهور أمام الرجال فعليها ان تغطي كامل جسدها، ليصبح لباسها حجابا يخفيها عن الأعين كالجدران.

وعلى الرغم من هذا التشدد الذي حرم المرأة العربية المسلمة من الظهور أمام الغرباء، إلا ان تفسير النص القرآني لزينة المرأة، وما يجوز أن يرى منها يختلف عن ما فرضه العرف لاحقا، والذي اعتبر أن مكانة المرأة الحرة يفرض عليها الاحتجاب. ودليل على ذلك ما اعتمده العديد من المفسرين للآية 31 من سورة النور، بجواز إظهار الزينة، واعتبار الملابس من الزينة الظاهرة التي تعتمدها المرأة لتظهر بشكل جميل أمام الغرباء بالاضافة إلى الخواتم والأقراط وغيرها. [54]

---

[53] المرجع السابق. ص. 84.

[54] الماوردي. **تفسير الماوردي**. (بيروت دار الكتب العلمية، مؤسسة الكتب الثقافية). الجزء 4، ص90.

كان العصر العباسي الأول عصرا ذهبيا بالنسبة للعرب، فقد تدفقت الأموال من كل مكان، وكان الرشيد يعطي الشعراء بالآلاف، ويوزع المال المتوفر بكثرة، حتى قيل فيه: "كانت أيام الرشيد كلها خير، كأنها من حسنها أعراس".[55] وفي هذا العصر، بلغت الإماء أعلى درجة، فمعظم أمهات خلفاء بني العباس كنّ من الجواري. وتراجع في هذا العصر دور الحرات. فبعد أن كانت المرأة العربية الحرة تشارك في الحياة الاجتماعية، صارت حبيسة القصر معزولة، وتحيط بها أسوار عالية من العادات والتقاليد، المتسربة من المناطق المفتوحة، خصوصا العراق وبلاد فارس. وقد كانت المرأة الحرة، في هذه المناطق، أسيرة الرجل، يفرض عليها العديد من القيود الصارمة.[56] وللفرس في هذه الفترة أثر كبير، فقد استجلب الرقيق الفارسي، وتم استخدام عائلات فارسية ارستقراطية في الحكم، مثل آل برمك، وبني صهبل، وآل نوبخت.[57]

وقد ذكر المؤرخون أن أبا العباس السفاح تولى الخلافة قبل أخيه المنصور، مع أن المنصور أكبر منه بالسن، لأن أم المنصور ليست عربية بل بربرية.[58] وقد كان عدم تولية الخلافة لمن أمه غير عربية عرفا درج عليه الأمويون، كما أسلفنا. لكن الحال سرعان ما تغير، لتصبح الجواري هن المتحكمات، فيما احتجبت الحرات. وأصبح كل من يستطيع شراء الجواري يقوم باقتنائهن. وأقيمت مجالس للغناء، وأنشئت بيوت يذهب إليها أصحاب النفوذ، من وزراء، وقضاة، وتجار، وحتى العامة، وجدوا أماكن لهم. المحور الأساسي الذي تدور حوله هذه

---

[55] جلال الدين عبد الرحمن السيوطي. **تاريخ الخلفاء**. (بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، 2003). ص.227.

[56] مريم نور الدين فضل الله. **المرأة في ظل الإسلام**. (بيروت: دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع).ص. 24.

[57] سلافة فضل الله حسن. **الجواري والقهرمانات**. ص. 45.

[58] المرجع السابق، ص. 60.

المجالس هو الجنس، والخدمات الجنسية. إن انتشار هذه الثقافة أثر على المرأة والرجل. فالرجل يرى الجارية الجميلة، المدربة، فيقارن بينها وبين زوجته، لتصبح قيمة الزوجة في الحضيض.

لقد أصبح البحث عن المتع الجنسية، من خلال الجواري، وبعيدا عن الزوجات ثقافة عامة، انتشرت من القصور إلى كل المواقع. وحاول بعض العلماء التصدي لهذه الظواهر، أو غيرها من القضايا التي يتحمل مسؤوليتها الحكام، فتعرضوا للسجن والظلم. وفي كتاب "المحن" لمحمد ابن أحمد التميمي ذكر لقصص كثيرة من الذين تعرضوا لمحنة السجن والضرب، من أعلام وفقهاء وشيوخ، وكل ذلك بسبب نقدهم للحاكم، أو وشاية، أو تهمة بالكفر.[59] فابتعد العلماء عن نقد الحكام والتطرق لأمور السياسة، وكتبوا في قضايا كثيرة، كان الجنس، والعلاقات مع الجواري، وكيفية تقوية القدرات الجنسية من أكثرها انتشارا. وقد اشترك في كتابة هذه الكتب فقهاء مثل النفزاوي، صاحب كتاب "نزهة الخاطر" وكتاب "تحفة النفوس" لمحمد بن أحمد التجاني، و"زهر الربيع" للشيخ الجزائري، وكتاب جلال الدين السيوطي "الوشاح في فوائد النكاح"، وكتاب "الأترنج في فوائد الغنج".[60]

هذه الكتب كانت تعبر عن واقع تلك العصور، وفي نفس الوقت ساعدت على انتشار ثقافة تحقر النساء، وتشكك في أخلاقهن. ليصبح التشدد في التعامل مع النساء فلسفة عند علماء وفقهاء أصبحوا مدارس في عصرنا، مثل الشافعي وابن تيمية. فالشافعي مثلا، الذي ينفي

---

[59] محمد بن أحمد التميمي. **كتاب المحن**. تحقيق: يحيى وهيب الجبوري. (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2006).

[60] رامي زيدان. "لغة الشيوخ الماجنة".(صحيفة النهار اللندنية، 2014) : عدد الرابع من كانون الأول
http://newspaper.annahar.com/: انظر أيضا: جلال الدين السيوطي. **الأترج في رقائق الغنج**. تحقيق محمد سيد الرفاعي. (دمشق: دار الكتاب العربي). ص 11-13.

حق المرأة في الميراث وإبداء الرأي في زواجها، يسقط عنها هذه الأهلية في ضرورة أن يكون للمرأة ولي، ويقول في ذلك: "... إذا كانت الأمة لامرأة، فإنها لا تملك عقد النكاح عليها... وإنها إذ لا تملك عقد النكاح على نفسها.. فلأن لا تملك عقده على غيرها أولى".[61] وقد استنتج ضرورة أن يكون للمرأة ولي قريب منها، وربط المسألة بالتوريث. فهو يرى أن الميراث يتحقق بالتعصيب المحض. لذلك، يمكن أن يكون ولي المرأة الأب أو الأخ أو الجد، وكذلك الأعمام، وبنيهم في حال فقدان من هو أقرب. ويقول: "يقدم الأقرب فالأقرب كما قلنا في الميراث".[62] ارتبطت هذه النظرة إلى المرأة بواقع نزع عنها الأهلية العقلية، وجعلها مجرد أداة للمتعة.

[61] أبي الحسين يحيى الشافعي اليمني. **البيان في مذهب الإمام الشافعي**. (دار المناهج للطباعة والنشر والتوزيع). المجلد 9، ص. 162.

[62] المرجع السابق، ص. 165.

خاتمة

لقد حسمت مكانة المرأة المتدنية، وتم عزلها وقيدت في كل تفاصيل حياتها بأحكام وشروط تطال المرأة الحرة فقط. ليكون الحجاب بالمنازل لنساء الطبقة العليا، وكان من النادر أن تخرج احداهن من منزلها إلا لأمر عظيم. أما النساء من العامة فكان حجابها في لباسها بحيث فرض عليها تغطية كل جزء من جسدها إذا أرادت الخروج لعمل او لقضاء حاجة. وقد أصبحت آراء الفقهاء التي تحدد لباس المرأة، وطريقة مشيتها وكلامها ومنعها من استخدام العطر، بمثابة مسلمات.

وبهذه الشروط صارت المرأة هي المسؤولة عن الغواية، لترفع المسؤولية عن الرجال فالرجل حين يخطئ، تكون المرأة هي السبب فهي التي تغويه، في لبسها غير المحتشم، أو مشيتها الخليعة او رائحة عطرها، اوصوتها المتغنج. ومن الواضح أن هذه القيم قد استمرت حتى عصرنا الحالي لتسخدم كذرائع للتحرش أو حتى الاغتصاب.

الفصل الثالث

المرأة العربية المسلمة المعاصرة

لم يختلف وضع المرأة المسلمة والعربية كثيرا منذ نهاية العصر العباسي وحتى القرن التاسع عشر. حيث بدأ ما عرف بعصرالنهضة العربية. فقد سادت النظرة الدونية للمرأة، وأصبحت آراء الفقهاء في المرأة ومكانتها ولباسها وقدرتها على الغواية منذ عهد آدم مسلمات. واستمر إقصاء المرأة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية عصورا طويلة.

لقد كان وضع المرأة لدى مختلف الحضارات متدنيا بشكل عام. لكن، ومع الثورة الصناعية التي أنهت عهد الإقطاع في أوروبا، انهارت الكثير من المسلّمات والبنى الاجتماعية. وكان أبرزها انهيار دور الكنيسة، وسيطرتها على جوانب الحياة المختلفة. لقد كانت الثورة الفرنسية المؤشر لانهيار منظومات القيم السائدة في أوروبا، فقد أصدرت الجمعية الوطنية الفرنسية إعلانا يعبر عن روح الثورة. ونورد نموذجا لما ورد فيه: "إن الإهمال، واحتقار حقوق الإنسان هي الأسباب الوحيدة للمصائب العامة، ولفساد الحكومات... يولد الناس ويظلون دائما أحرارا، ومتساوين في الحقوق. وعليه، فالامتيازات المدنية لا يمكن أن تبنى إلا على المنفعة العامة".[1]

في هذا الوقت، كانت الامبراطورية العثمانية مستمرة في انحدارها. فقد أعاقت المؤسسات القديمة، المتمثلة بالأعيان والانكشارية والمؤسسة الدينية، محاولات التحديث. وتم عزل

[1] لويس عوض. **الثورة الفرنسية**. (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992). ص. 92.

السلطان سليم الثالث، الذي حاول تحديث الجيش من خلال التخلص من الانكشارية، وتحديث الأسطول، والتزود بالأسلحة الحديثة.[2] وتعرضت الإمبراطورية لهزائم متلاحقة، وخسرت الكثير من المناطق التي تسيطر عليها. وبدأت القوى الأوروبية محاولاتها في ابتلاع أجزاء مهمة من أراضي الدولة العثمانية. لقد كانت الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام مؤشرا على قرن جديد يمهد لانتهاء الخلافة الإسلامية، كشكل سياسي ومنظومة قيمية، مرتبطة فيها، تميز منطقة جغرافية وكتلة بشرية هائلة. لقد شكل عجز الدولة الإسلامية عن مواجهة الغرب محركا للدولة الصاعدة في مصر، ودفع محمد علي باشا إلى إطلاق عملية التحديث. فكان احتكاك المثقفين بالغرب من خلال البعثات التي سعت للتعليم ونقل المعرفة، ليعيش المثقف العربي المسلم صدمة الحقيقة. فحتى رجال الدين الذين رافقوا المبعوثين أدركوا أن التخلف والضعف الذي يعاني منه العالم الإسلامي، ليس علميا فقط، بل له جوانب اجتماعية وثقافية. وقد اكتشفوا الحاجة الملحة لتغيير القناعات التي كانت تصف الغرب بانحطاط الأخلاق والانحلال، وذلك تبريرا سهلا لرفض التحديث، والمحافظة على السائد. وكانت المرأة في مركز هذا الرفض. فانطلقت الدعوات لتعليم المرأة التي تربي الأجيال كضرورة لا يمكن تجاوزها لمحاربة التخلف ومواجهة خطر الاستعمار الداهم. وقد جاء كتاب قاسم أمين "تحرير المرأة" كتتويج لمجموعة من الدعوات التي ربطت تخلف المسلمين بحال المرأة، وفرض الحجاب عليها، وحرمانها من التعليم والعمل.[3]

---

[2] علي محمد الصلابي. **الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط**. (بيروت: مكتبة حسن العصرية للطباعة والنشر والتوزيع، 2010). ج2، ص. 74.

[3] قاسم أمين، **تحرير المرأة**. (القاهرة: مكتبة الترقي، 1899). صفحات الكتاب.

ومع انهيار الامبراطورية العثمانية وخضوع معظم الجغرافيا الإسلامية للسيطرة الغربية، ونشوء الاتحاد السوفييتي، ظهرت في المنطقة العربية الدعوات القومية، واليسارية، التي ركزت، في أدبياتها، على ضرورة تحرير المرأة، وضرورة مشاركتها في بناء مجتمع معاصر ومتقدم، قادر، في نفس الوقت، على مواجهة الاستعمار. وفي نفس الوقت، ظهرت الدعوات إلى إنشاء خلافة إسلامية عربية كبديل عن الإمبراطورية العثمانية المنهارة، للمحافظة على الهوية الإسلامية، وحماية المجتمعات من الانحلال الذي تتميز به الثقافة الغربية. وقد تصارعت هذه الحركات فيما بينها، وتمركزت حولها دول ومناطق جغرافية.

وعلى الرغم من ارتفاع الصوت الذي يدعو إلى تجاوز القيم السائدة، خصوصا في النصف الأول من القرن العشرين، إلا أن الهزيمة التي لحقت بالعرب في ما أطلق عليه النكبة، عززت الحركات السلفية التي أصبحت تفرض رؤيتها على مناطق مهمة ومؤثرة في العالم العربي، بل ووصلت حد الصراعات المسلحة بين فريقين يمثلان نقيضين فكريين، الأول يدعو لإحياء الدين والعودة إلى المنبع الأصلي الذي يشكل فيه السلف الصالح أنموذجا يحتذى. والثاني، يدعو إلى بناء دولة قومية تسود فيها قيم العدالة الاجتماعية والتقدم. وقد كانت الدولة القومية الأوروبية، والعدالة الاشتراكية هما السبيل للتحرر ومحاربة التخلف بالنسبة لهذا الطرف.[4]

كانت المرأة في مركز هذا الصراع. فقد غالى الفكر الوهابي في فرضه القيود على المرأة ومشاركتها في المجتمع. وظهرت حركة الإخوان المسلمين، التي انتشرت في مصر وفي

[4] الصراع بين مصر والسعودية الذي دارت رحاه في اليمن.

مناطق عربية مختلفة، والتي ركزت على التناقض بين ثقافة الغرب والثقافة الإسلامية، وكانت الموضوعات التي تتعلق بالمرأة في مركز اهتمامها، مثل محاربة التغيير في العادات، وضرورة احتجاب المرأة، ومحافظتها على عفتها، وعدم الاختلاط، والتركيز على تعليم المرأة في ما ينفع دورها في العائلة.

وظهرت الحركات النسوية التي تدعو إلى تحرر المرأة، وانطلاقها في مختلف المجالات، والتي جعلت من المرأة، في الغرب، مثالا لها. وخلال قرن كامل، ورغم التحولات التي شهدتها المجتمعات العربية، لم تنتصر أي من الدعوات. فما زالت المرأة، وحركاتها، وقوى سياسية تدعو إلى تحرير المرأة، ومساواتها بالرجل في مختلف المجالات، كضرورة في عملية التحرر الوطني، الذي لم ينجز بعد. وكذلك لم تمت الدعوات السلفية التي تفسر انتصار الغرب علينا ببعدنا عن الدين وانتشار الفساد وانحلال الأخلاق، ولم تزل هذه الدعوات تجد من يستجيب لها، ويدافع عنها حتى يومنا هذا.

الحملة الفرنسية

في نهاية القرن الثامن عشر، غزت جيوش نابليون مصر، وتمكنت بسهولة من هزيمة المماليك. وقد وصف عبد الرحمن الجبرتي، في كتابه "عجائب الآثار"، دخول الفرنسيين إلى مصر. ويمكننا أن نرى، بوضوح، تفوق الفرنسيين والهوة الواسعة بينهم وبين المماليك. وعلى الرغم من تسجيله لبعض محاولات المقاومة، إلا أن الفرنسيين سيطروا بسرعة، وفرضوا

سلطتهم. وقد ادعى الفرنسيون، في البداية، أنهم حلفاء للسلطان العثماني، وهدفهم رفع الظلم عن أهل مصر. وقد كان البيان الذي عمم على المساجد دليلا على محاولتهم كسب ود الموالين للعثمانيين، ونصه التالي: "أدام الله إجلال السلطان العثماني، أدام الله إجلال العسكر الفرنساوي، لعن الله المماليك، وأصلح حال الأمة الفرنسية".[5]

ولم يمر وقت طويل حتى حصلت العديد من التمردات. وقد كان العديد من المعممين الأزهريين على رأس هذه الثورات. ولكن الفرنسيين ردوا بعنف، فاقتحموا الأزهر، واعتقلوا العديد من علمائه. كما قاموا بإعدام العشرات، وإلقائهم في النيل.[6] لقد كانت صدمة أهل مصر قوية، فقد كان واضحا تفوق الفرنسيين بعلمهم ومعداتهم وأسلحتهم. وعلى الرغم من ادعائهم الإسلام، في البداية، إلا أنه سرعان ما ظهرت الفوارق الثقافية الهائلة بينهم وبين المصريين. وقد وضح الجبرتي ذلك من خلال ذم أخلاق الفرنسيين، لسفور نسائهم، ومشاركتهن الرجال في المناسبات والاحتفالات، ولكنه لم يستطع نكران تأثر المصريات بالعادات الفرنسية، ومحاولتهن تقليد الفرنسيات. وقد عد الجبرتي ذلك من المفاسد. "من المفاسد تشبه نساء المصريين بالفرنسيات، من تبرج وسفور...وقد اختلط الجنود بالأهالي، وتزوجوا منهم، ومن صاحب الفرنسيين يقلدهم بلغتهم وعادتهم...".[7]

لقد كان لهذا الاحتكاك المباشر بين المصريين والفرنسيين أثر كبير، فقد بين ضعف المماليك الذين سيطروا على مصر، وحكموها بالسيف، ونهبوا ثرواتها، وظلموا أهلها، وكذلك

---

[5] عبد الرحمن الجبرتي. **عجائب الآثار في تراجم الأخبار**. (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012). ج 4، ص. 7-12.

[6] المرجع السابق، ص. 42.

[7] المرجع السابق (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، طبعة بولاق، 1998). ج3، ص. 263.

هز الثقة بالإمبراطورية العثمانية التي كان ينظر إليها كحامية للمسلمين. وبالنسبة للتشبه بالفرنسيين كما وضح الجبرتي، فإن المصري الذي رأى سرعة انهيار جيش المماليك بأسلحته القديمة أمام قوة وحداثة السلاح الفرنسي، أدرك أن تفوق الفرنسي نابع من تفوق علمي ومعرفي، ما سهل تقبل العادات الفرنسية التي لا تحبس المرأة في البيت، ولا تشكك بقدراتها العقلية. لقد أطلق الاحتلال الفرنسي القصير لمصر مرحلة جديدة، كانت سمتها الأساسية إطلاق عملية التحديث في كل جوانب الحياة في مصر، اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا، ميزت القرن التاسع عشر تحت حكم أسرة محمد علي. وعلى الرغم من فشل الحملة الفرنسية في تحقيق أهدافها، في السيطرة على مصر، وقطع طريق الهند على بريطانيا، إلا أن هذه الحملة أطلقت المطامع الاستعمارية، وأسست لدراسات تتعلق بالشرق تمهد الطريق للاستعمار فيما أطلق عليه لاحقا "الاستشراق".[8]

الحركة النسوية الغربية

على الرغم من انهيار النظام الاقتصادي الإقطاعي، وظهور نظام جديد في الغرب هو النظام الرأسمالي، الذي يعتمد في بنيته على الفرد كعنصر أساسي في المجتمع، فإن النظرة للمرأة لم تتغير. فهي تأتي في مرتبة متدنية بعد الرجل. وعلى الرغم من انهيار سلطة الكنيسة، لم تتغير نظرة المجتمع للمرأة، والمبنية على دنس المرأة ومسؤوليتها في الخطيئة الكبرى. في الإنجيل، يروي يوحنا اللاهوتي رؤاه، فيقول أنه من كل الأرض لم يستطع تعلم

[8] نبيل علقم. **تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية ودور المرأة فيها**. (رام الله: جمعية إنعاش الأسرة، 2005). ص. 27.

الترنيمة الجديدة أمام العرش غير مائة وأربعة وأربعين ألفا، هؤلاء هم الذين لم يتنجسوا مع النساء لأنهم الأطهار.[9] وفي بداية القرن السابع عشر، وتأسيسا على الأحداث التي جرت في القرن الذي سبقه، حيث هوجمت الكنيسة لدورها في تخلف المجتمع، ومحاربتها للعلم باسم الدين، وكذلك لتحالفها مع الحكم المطلق؛ وفي نفس الوقت، تم تقويض صورة الملك كحاكم مطلق، لتظهر الإرهاصات الأولى للفكر الديمقراطي، هذا الفكر الذي قام على حقوق الفرد في السياق الاجتماعي والسياسي.[10]

كان جون لوك أبرز الفلاسفة الذين وضعوا الأسس للفكر الديمقراطي، معتمدا، في فلسفته، على قدرة العقل في اكتساب المعرفة من خلال التجريب. وهو بذلك يواجه أفكار الكنيسة التي تعتمد على النصوص المقدسة كمصدر للمعرفة. هذه النصوص التي تقدس الواقع المتمثل بسلطة الملك وحق الطبقة الأرستقراطية، وسلطة الكنيسة المقدسة على حياة البشر وأفكارهم. لقد اعتبر لوك أن الفرد يولد حرا بالطبيعة، وتقوم النظم بسلب هذه الحرية، أو تعزيزها. لكن لوك وفلسفته خاطبا الرجل فقط، بصفته مسيطرا، بالطبيعة، على المرأة من الناحية العقلية والبدنية، وعليه، فإن الفرد الحر هو الرجل وليس المرأة. فالمرأة لا وجود لها في المجتمع السياسي، هي موجودة فقط عندما نتحدث عن الأسرة.[11]

أما روسو، كاتب العقد الاجتماعي، فهو، مع تأييده للأفكار التي تدعو إلى تحرر الفرد وكبح سيطرة الحاكم، إلا أنه أعتبر أن المرأة كيان تابع للرجل، وعليها أن ترضى بهذه التبعية.

---

[9] العهد الجديد، رؤيا يوحنا اللاهوتي، الإصحاح الرابع عشر.

[10] منار الشوربجي. **الديمقراطية وحقوق المرأة بين النظرية والتطبيق**. (رام الله: مواطن، 1996). ص. 20.

[11] المرجع السابق، ص. 21.

وحتى تعليمها يجب أن يرتبط بدورها في تربية الأولاد وإرضاء زوجها.[12] لقد شهد القرن السابع عشر النصر الحاسم للنظام الرأسمالي على سلفه الإقطاعي، لكن الأفكار التي استطاعت الصمود قرونا طويلة، والتي ترتبط، بشكل رئيسي، بحقوق الإنسان الرجل والمرأة، حافظت على بقائها لقرون لاحقة. فرغم الهدم المنهجي لسلطة الملك وسلطة الكنيسة وسلطة الرجل، لم تحصل المرأة على مساواة كاملة مع الرجل حتى وقت متأخر، وانتظرت حتى القرن العشرين لتحصل على حقها في التصويت في معظم الديمقراطيات الغربية. وقد ظهرت قضايا جديدة تواجه المرأة في مطالبتها بالمساواة مع الرجل، فمع ظهور اقتصاد السوق، استغلت المرأة، بشكل كبير في عمليات الترويج للسلع، إلى الحد الذي صارت فيه، في كثير من الأحيان، هي ذاتها سلعة يجري الاتجار بها بطرق وأشكال جديدة. لقد اعتبرت بيتي فريدان، ناشطة الحقوق النسوية الأمريكية، أن ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، تمثلان المرحلة الأولى من الحركة النسوية، والتي هدفت إلى تحقيق المساواة بين الرجل والمرأة. وقد رأت فريدان أن هناك أخطاء وقعت فيها هذه الحركة، أهمها إقصاء الرجل عن الحركة النسوية، ليصبح نضال المرأة من أجل تحررها وكأنه صراع بين المرأة والرجل، ورأت ضرورة إعادة الاعتبار للأسرة كشكل يجمع الرجل والمرأة في محاربة التمييز والظلم الاجتماعي.[13]

وفي دراسته المنشورة في مجلة القاهرة بعنوان الأنثوية، يقدم عبد الوهاب المسيري رؤيته حول المرأة والأسئلة المعاصرة المتعلقة بتحررها. وقد اعتبر المسيري أن ما يقدمه الغرب يرتبط، بالضرورة، مع الرأسمالية وسلوكها السياسي والاجتماعي. فالرأسمالية التي سعت إلى دمج

---

[12] المرجع السابق، ص. 25.

[13] المرجع السابق، ص. 91.

المرأة في قوة الإنتاج، سعت إلى تحريرها من الموروثات التي تربطها بالبيت والأسرة. وعلى الرغم من النتائج السلبية على الأسرة، فإنه يرى أن حركة تحرير المرأة عملت على إعادة الاعتبار للمرأة كإنسان حر وكامل، وذلك بدون وضعها في حالة صراع مع الرجل، فالرجل والمرأة يعملان معا من أجل الوصول إلى مجتمع تسود فيه قيم المساواة وعدم التمييز والعدالة. لكن المسيري يرى أنه وفي عصر ما بعد الحداثة، فإن حركة تحرير المرأة تحولت إلى "الفيمينزم" التي ترجمها بالأنثوية. وهي حركة تتمركز حول الأنوثة كنقيض للذكورة، حركة تمثل صراعا تاريخيا بين الرجل والمرأة. لقد قدم المسيري تحليلا جديا لحالة المجتمعات الرأسمالية، التي تتمركز حول الإنتاج المادي كقيمة تبتلع القيم الأخرى. وفي هذا السياق، يتحول كل شيء إلى سلعة. وتصبح عملية الإنتاج هدفا للمجتمعات الإنسانية، ما يؤدي إلى تدمير الطبيعة واستنزافها، وفي نفس الوقت، تدمير القيم والروابط الاجتماعية ليتحول الإنسان إلى كائن فردي تحكمه قوانين الاستهلاك. ويتم توليد قيم جديدة تبرر الاستغلال، وتروج للإنسان السوبر الذي يتحول إلى إنسان "إمبريالي"، وهو نفسه جزء من مجتمعات إمبريالية تستعمر الشعوب الضعيفة، وتستنزف ثرواتها، وتدمر مجتمعاتها وقيمها. وفي ظل هذه المجتمعات، تحولت المرأة إلى ضحية، فهي مستضعفة في الأساس، وقد حولتها المجتمعات الإمبريالية إلى مستعبدة للقيم الاستهلاكية، من تسليع جسدها في عمليات الترويج للسلع، إلى استعبادها كمستهلك لمنتجات تستهدف جسدها، وتستنزف ما تجنيه من عملها، والذي، بدوره، حرمها من الدور الرئيسي لها، كأم ومربية وقيمة على العائلة.

ويرى المسيري أن الأنثوية تحمل الرجل المسؤولية عن حالة المجتمع والظلم المريع الواقع على المرأة، فهو (الرجل) الذي سعى دوما لاستعباد المرأة واستغلالها في تحقيق رغباته، والعلاقة بين الرجل والمرأة هي علاقة صراع منذ فجر التاريخ، وعلى المرأة أن تخوض الصراع من أجل الانتصار والسيطرة. والأنثوية، بالنتيجة، كما يراها المسيري، هي حركة عنصرية وليدة المجتمعات الرأسمالية الاستغلالية والعنصرية. وقد وصل إلى مقاربة غريبة لاعتبار النسوية شبيهة بالصهيونية. مثلما اعتبر أن المجتمعات الرأسمالية التي تحاول فرض سيطرتها على منطقتنا العربية، تسعى إلى تدمير قيمنا من خلال الدعم المقدم، للمنظمات غير الحكومية التي تدعو إلى تحرير المرأة.[14]

لقد كانت رؤية المسيري مختصرا لما يقدمه العديد من الدعاة والمفكرين المسلمين، لنظرتهم للغرب وثقافته. فالغرب الاستعماري يسعى إلى تدمير قيمنا وأخلاقنا، بهدف السيطرة علينا واستغلال ثرواتنا. إن رفض القيم الغربية، خصوصا ما يتعلق بالمرأة وحقوقها، قاد تحركات العديد من القوى السياسية خصوصا الإسلامية منها، تجاه دور المرأة وضرورة بقائها أسيرة للعادات والتقاليد الموروثة.

عصر النهضة العربية

بعد خروج الفرنسيين من مصر، أرسل العثمانيون قائدا عسكريا من أصل ألباني إلى مصر هو محمد علي باشا، ليقوم، لاحقا، بتأسيس أسرة حكمت مصر قرنا ونصف القرن من الزمن

[14] عبد الوهاب المسيري. "الأنثوية ما بين حركة تحرير المرأة وحركة التمركز حول الأنثى". **مجلة القاهرة**. العددان 178–179 (1997: ص. 63–54).

تقريبا. أدرك محمد علي أن سبب الضعف، الذي تعاني منه الإمبراطورية العثمانية، يعود لتخلفها عن مواكبة الأفكار والعلوم الحديثة. وعليه، فقد أطلق حملة تحديثية تركزت، بشكل أساسي، على بناء جيش قوي ومعاصر. وقد أرسل العديد من البعثات العسكرية إلى الغرب من أجل تحقيق هذا الهدف. وإضافة إلى تأثير الحملة الفرنسية على مصر، ساهم المبعوثون، الذين تعرفوا على الحياة في الغرب، في ظهور ما عرف بعصر النهضة العربية. ونجد في دعوة رفاعة الطهطاوي رجل الدين الذي رافق بعثة عسكرية، بعثها محمد علي إلى فرنسا، كإمام ومُفتٍ، بداية الدعوة إلى تغيير حال المرأة العربية من خلال تعليمها. فقد أعجب بشخصية المرأة الباريسيّة المتعلمة، والتي تمتلك الأخلاق والشخصية القوية. وكان ذلك دافعا له لإطلاق تلك الدعوة.[15] في هذه الفترة التي انطلقت فيه دعوات تعليم المرأة، كان الوضع الذي تعيشه المرأة العربية المسلمة، وحتى المسيحية واليهودية، لا يختلف عن العصور السابقة. فقد اعتبرت المرأة كيانا جنسيا يرتبط به شرف الرجل. وكل ذلك في ظل أفكار تعطي الحق للرجل بالزواج من أكثر من امرأة، وكذلك الحق في العلاقات مع الإماء تحت ملك يمينه، واللاتي كن بالعشرات عند أبناء الطبقات العليا في المجتمع.[16] وهذه الطبقات بالذات، هي من فتح الباب لتعليم بناتها، ومنها انطلقت التحركات النسوية الأولى، إضافة إلى نساء الطبقة الوسطى التي ظهرت مع تقدم عملية التحديث في مصر. لقد كانت سمة تلك النساء، تعرفهن على ثقافة الغرب، وإتقانهن اللغة الفرنسية على وجه الخصوص. وقد

---

[15] نصر حامد أبو زيد. **دوائر الخوف قراءة في خطاب المرأة**. (الدار البيضاء، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط4،2007). ص. 179.

[16] مارجو بدران. **رائدات الحركة النسوية المصرية والإسلام والوطن**. ترجمة علي بدران. (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2001).ص. 40.

احتك معظمهن بنساء أوروبيات.[17] انطلقت هذه الحركة في مصر، التي استقلت فعليا عن الإمبراطورية العثمانية، رغم تبعيتها الإسمية، فكانت مكانا آمنا للعديد من المفكرين، والمطالبين بالتغيير من مناطق عربية مختلفة مثل لبنان وسوريا وفلسطين. وعلى سبيل المثال، نشرت اللبنانيتان المستقرتان في الإسكندرية أول قاموس لسير النساء، كانت الأولى مريم النحاس، التي نشرت كتابها "معرض الحسناء في تراجم مشاهير النساء" في العام 1879، والثانية زينب فواز ونشرت كتابها "الدر المنثور في طبقات الخدور" في العام 1894. في تلك المرحلة، كانت الإشارة إلى أهمية النساء، وحضورهن في صناعة تاريخ الأمة أمرا خطيرا.[18] وشاركت النساء في هذه المرحلة في الحراك الفكري والسياسي الذي يدور من خلال الصحف والندوات والدعوات، والتي تناقش مسألة الهوية، والقومية والتقدم. وكما أسلفنا، فإن الوضع المأساوي الذي تعاني منه المرأة اعتبر أحد أسباب تخلف المجتمعات الإسلامية والعربية. وفي هذه الفترة، ظهرت هدى شعراوي، وقد كان والدها ينتمي إلى الطبقة العليا الحاكمة لمصر، وأمها شابة من أصول قوقازية تعيش في ملكية عائلة تركية شركسية مقربة من العرش. وكانت العادة، في ذلك الوقت، أن تقدم تلك الفتيات لكبار التجار أو الموظفين المصريين لتقريبهم من دوائر الحكم. ومع أن والدتها لم تصل إلى مكانة زوجة شرعية، إلا أنها حظيت بالاحترام، خصوصا بعد وفاة زوجها الذي لم يكن له أبناء غير هدى وشقيقها. تزوجت هدى في سن الثانية عشرة لابن عمتها، وقد كان الهدف الأساسي من هذا الزواج هو الحفاظ على أملاك العائلة، لتنفصل عن زوجها بعد سنتين، ويستمر انفصالها

[17] المرجع السابق. ص. 47.

[18] المرجع السابق. ص. 34.

سبع سنوات،[19] لتنطلق في المشاركة في الحياة السياسية، وفي العمل على نشر أفكارها. وقد أسست، في العقد الأول من القرن العشرين، جمعية خيرية، وألقت محاضرات للنساء، وكانت نشيطة في حركة المطالبة بالاستقلال عن بريطانيا. وفي العام 1923، أسست الاتحاد النسائي المصري لتصبح قائدة للحركة النسائية لعقدين لاحقين.[20]

تميزت شخصية هدى شعراوي بالاستقلالية. ولعل ذلك يعود لعدة عوامل، أهمها الطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها، ووفاة والدها وانفصالها عن زوجها. في السبب الأول، فقد كانت الطبقة العليا قريبة من دوائر الطبقة الحاكمة التي قادت، منذ البداية، عملية التحديث، بدءا من محمد علي. وكما أسلفنا، فإن دعوات تحرر المرأة انطلقت مع عودة المبتعثين إلى أوروبا. أما غياب زوجها ووالدها، فقد منحها استقلالية بعيدة عن رهبة الوالد وسيطرة الزوج. شكلت هدى شعراوي أنموذجا للمرأة من الطبقات العليا في عصر النهضة والتحديث، التي كانت واعية لحقوقها، ولدورها في نهضة بلدها، وضرورة تحرير النساء من قهر المجتمع. لكنها، في نفس الوقت، استفادت من امتيازات طبقتها. ومع ذلك، فإن هدى شعراوي لم تكن حالة فريدة في ذلك الوقت، فقد شاركتها أفكارها وسعيها إلى تحرير المرأة سيدة أخرى، هي نبوية موسى، ابنة ضابط مصري في الجيش، امرأة من الطبقة الوسطى. وهي مثل هدى لها شقيق، اكتشفت نبوية موسى، منذ صغرها، التمييز بين الرجل والمرأة في مجتمعها، وذلك من خلال حرمانها من الالتحاق بالتعليم مثل أخيها. فأصرت أن تحصله في بيتها، ثم أصرت بذلك على الالتحاق بمدرسة البنات الابتدائية، ثم تدربت في برنامج تعليم البنات في المدرسة

---

[19] المرجع السابق، ص. 60.

[20] المرجع السابق. ص. 60.

السنية، لتصبح مدرسة في مدرسة عباس الابتدائية. وفي مهنتها، كان المدرس يأخذ ضعف أجر المدرسة، وقد احتجت على ذلك، واعتبرته ظلما للمرأة. وعندما رد عليها بأن المعلم الرجل يمتلك شهادات أعلى منها، كانت أول امرأة في مصر تتقدم لشهادة البكالوريا، وحققت بذلك هدفها بالمساواة في الراتب. حاربت نبوية موسى القيم التي تحرم المرأة من التعليم، وناضلت من أجل المساواة مع الرجل بالراتب، وكتبت المقالات، ونشرت دعوتها إلى المساواة في الصحف. رفضت نبوية موسى الزواج، لأنه سيخضعها لسلطة رجل ليس أفضل منها، ولا أكثر تعليما. وعلى الرغم من قوة التقاليد، التي كانت تعيق تقدم المرأة، إلا أن نبوية استطاعت تحقيق إنجازات كبيرة، منحت حركة تحرر المرأة في مصر زخما وقوة. ومثل شعراوي، شاركت نبوية موسى في الحراك الوطني الذي يعمل على استقلال مصر من الاستعمار الإنجليزي، بل ولاحظت أن الاستعمار يحاول المحافظة على السائد الاجتماعي في ما يتعلق بالمرأة، حيث فرض على الفتيات في المدارس الحكومية ارتداء الحجاب.[21]

أدركت النساء المصريات أن الاستعمار يسعى إلى ترسيخ التخلف في بلدهن، وأهم سمات التخلف هو حرمان المرأة من التعليم، وعزلها عن المجتمع، وفرض الحجاب عليها. لكل ذلك، كانت المطالبة بتعليم النساء وخروجهن من البيوت، ونفي العلاقة بين الدين وتغطية الوجه، تترافق مع الانخراط بالحركة الوطنية التي تحارب الاستعمار، وتسعى إلى التخلص منه. في 19 آذار من العام 1919، خرجت حوالي خمسمائة امرأة مصرية، على رأسهن هدى شعراوي، في مظاهرة ضد الاستعمار البريطاني. ثم تلى ذلك مظاهرة أكبر في 20

[21] المرجع السابق، الصفحات: 68-73.

و21 من ذات الشهر. وقد شاركت نخبة من سيدات المجتمع المصريات في هذه المظاهرات، وانتشرن في الشوارع والميادين، وتوجهن إلى بيت الزعيم الوطني المعتقل في ذلك الوقت سعد زغلول، مطالبات بتحرير وطنهن ومجتمعهن. لقد كانت حركة النساء هذه غير بعيدة عن الحراك الاجتماعي والثقافي الذي يدعو إلى تحرير المرأة من القيود والعادات التي تبقيها أسيرة التخلف والبيت.[22]

لم يقتصر هذا الحراك على المرأة المصرية، وإن ظهر هناك بشكل واضح وبقوة أكبر، بل تحركت المرأة الشامية والمغربية والتونسية والجزائرية في سياق النضال الوطني، الذي لا يلغي المطالبة بالحقوق وبتحرر المرأة. ولعل الحدث الأبرز، في هذا السياق، هو قيام مظاهرة نسوية في دمشق بقيادة السيدة ثريا الحافظ، في أوائل الثلاثينيّات، ضد الحجاب. حيث سارت النساء إلى ساحة المرجة في دمشق، وألقت ثريا الحافظ خطابا سمعه جمع غفير من الموجودين هناك، ثم قمن بنزع الحجاب عن وجوههن بشكل جماعي.[23]

كانت هدى شعراوي ونبوية موسى تمثلان ما بعد عصر النهضة، فقد أطلقت دعوتهما بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية، وفي ظل الاستعمار البريطاني لمصر، ومع ظهور دعوات لتأسيس خلافة عربية تعمل بالأساس على استمرار الثقافة السائدة، كجواب على اختفاء الدولة الإسلامية.

الاستعمار الغربي

---

[22] بثينة شعبان. **المرأة العربية في القرن العشرين**. (دمشق: دار مدى للثقافة والنشر، 2000)، ص. 74-75.

[23] المرجع السابق، ص. 76.

بعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، انتهت دولة الخلافة، وظهرت كيانات سياسية في المنطقة الجغرافية التي كانت تسيطر عليها. وقد عزز ذلك الدعوات إلى التحديث، مثلما ساهم ببروز الحركات التي تدعو إلى إعادة الخلافة. لقد تأثرت المنطقة العربية، بشكل كبير، بهذه الأحداث، فقد تم توزيعها حسب اتفاقية سايس بيكو بين بريطانيا وفرنسا في العام 1916. واعتمدت الدولتان على القوة لفرض حكمهما، وبالتحالف مع قوى محلية. وفي غمرة هذه الأوضاع، صعد دور الاتحاد السوفياتي، الذي دعم القوى التي تسعى إلى الاستقلال، ودعا إلى نشر الاشتراكية كحل سياسي واقتصادي واجتماعي، يؤدي إلى تقدم الشعوب الفقيرة والمتخلفة، ويجعلها تتجاوز المرحلة الرأسمالية ومساوئها، لتصل إلى الاشتراكية التي تبنى على الاستقلال والتقدم الاقتصادي والعدالة الاجتماعية. انتشرت الأفكار الاشتراكية في المنطقة العربية، وتم تأسيس العديد من الأحزاب الشيوعية، التي تدعو للمساواة والتحرر السياسي والاجتماعي، بحيث تتحرر المرأة من المفاهيم المتخلفة بالتوازي مع تحرر بلدانها من الاستغلال الاستعماري. لقد كانت المرحلة التاريخية بين الحربين العالمية الأولى والثانية، مليئة بالتحولات، والأفكار المتناقضة، فالأنظمة الحاكمة في الدول العربية المستقلة متساوقة مع المصالح الاستعمارية، والحركات اليسارية تصارع من أجل نشر أفكار تدعو إلى محاربة الاستعمار، وبناء أنظمة اشتراكية تتوفر فيها العدالة الاجتماعية، وتعتبر نفسها جزءا من تحالف عالمي ضد الرأسمالية. هذه الأفكار ظهرت كنبت غريب في مجتمعات تقليدية، تتمسك بعادات متوارثة تتناقض مع المفاهيم الاشتراكية، خصوصا ما يتعلق بالنظرة إلى الدين والمرأة. وقد حوربت هذه الأفكار لعقود لاحقة، باعتبارها أفكارا

ترفض الدين وتدعو إلى الانحلال الأخلاقي، لنجد المجتمعات العربية تغض النظر عن دعوة الاشتراكيين إلى التحرر، والتقدم، وترى فيهم دعاة لهدم الدين والأخلاق، الأمر الذي حرمهم من اكتساب الشعبية والوصول إلى قيادة الشعوب.

وفي المقابل، فإن الحركات الإسلامية لم تستطع هي أيضا تقديم ما يقنع الشعوب بقدرتها على بناء خلافة إسلامية تعيد للأمة نهضتها وحريتها. ومنذ انهيار الخلافة العثمانية حتى الحرب العالمية الثانية التي ولدت نظاما جديدا، سيطرت قوى سياسية تقليدية محافظة على الحكم في المنطقة العربية. وعلى الرغم من ظهور الحركة الصهيونية التي سعت إلى تأسيس دولتها في فلسطين، بدعم من القوى الاستعمارية، لم تستطع الحركات اليسارية أو الإسلامية الوصول إلى قيادة المجتمعات العربية. وطوال هذه الفترة لم تكن قضية تحرر المرأة تحتل مرتبة متقدمة، بل تراجعت لدوائر ضيقة، تتعلق بالتعليم لدى النخب. أما القوى الإسلامية، فقد جعلت محاربة دعوات تحرر المرأة التي يطلقها نخبة من المتغربين، عنوانا لصراعها ضد الغرب، وقيمه وانحلاله، الأمر الذي أثر سلبا على المرأة. فقد ترافقت دعوات التخلص من الاستعمار، مع دعوات حجب المرأة والتزامها بيتها. ومع نظرية الفتنة التي تتركز بجسد المرأة.

في العام 1948، هزمت الأنظمة العربية مجتمعة في حرب قصيرة، وقد كان فشل الجيوش العربية مجتمعة في مواجهة عصابات صهيونية مدويا، انهارت معه نظم عربية في مناطق رئيسية، لتشكل نظما وطنية تدعو لهدم القديم وبناء مجتمعات جديدة، بحيث تميزت الأنظمة الجديدة بتحالفها مع الاتحاد السوفياتي، الأمر الذي أدى إلى ظهور قوى يسارية تسعى

للوصول إلى الحكم. لقد شهدت خمسينيات القرن العشرين حركات سياسية صاعدة تدعو إلى مشاركة المرأة وتفعيل دورها.[24] وقد جاء صعود هذه القوى والأحزاب، بعد هزيمة العرب في العام 1948، وتأسيس دولة إسرائيل، بحيث كانت هذه الهزيمة دليلا على فشل الأنظمة العربية. الأمر الذي أدى إلى سلسلة من الانقلابات (مصر، سوريا، العراق، ليبيا)، كما كان لهذه الهزيمة دور كبير في دفع الأحزاب القومية واليسارية إلى بناء تحالف مع دول المنظومة الاشتراكية، الأمر الذي جعل الصراع مع الغرب الرأسمالي ومع الصهيونية، يصبح عنوانا لمرحلة تاريخية كاملة امتدت طويلا.

ومع أن القوى اليسارية تمتلك رؤية مختلفة للمرأة ودورها، إلا أنها لم تؤمن بفكرة النضال من أجل تحرر المرأة كشعار، بل اعتبرت أن الظلم الواقع على المرأة هو جزء من الظلم الذي يقع على الطبقات المسحوقة، أي قضية المرأة هي جزء من الصراع الطبقي، ولا يمكن فصلها عن القضية العامة.[25]

وإذا أخذنا حالة المرأة الفلسطينية التي اندمجت في الحركة الوطنية الفلسطينية، وشاركت من خلال عضويتها في فصائل منظمة التحرير في الفعل السياسي والفعل النضالي وصولا إلى المشاركة الفعلية في المعارك والعمليات العسكرية. نجد أن المرأة الفلسطينية تشكل نموذجا حقيقيا لحال المرأة عندما تذوب قضيتها كامرأة في القضية العامة لشعبها. لقد تحطمت بنية المجتمع الفلسطيني الذي تعرضت غالبيته للتهجير القسري في العام 1948، والتي آلت إلى

---

[24] فرج ريتا. "المرأة في الإسلام الحركي". **النسوية الإسلامية**. مجموعة باحثين. دبي: (مركز المسبار للدراسات والبحوث، 2012). ص. 69.

[25] إصلاح، جاد. "الحركة النسائية الفلسطينية". الأطر النسوية والمنظمات النسوية غير الحكومية: وقائع المؤتمر السنوي الخامس لمؤسسة مواطن 17-18 كانون أول 1999: ص. 75.

المخيمات، التي ضمت فئات اجتماعية من مختلف الطبقات، عدا قلة قليلة من الطبقة العليا التي تمكنت من الاندماج في المجتمعات التي لجأت إليها بفضل ما تملكه من إمكانات مادية وعلاقات. وعلى الرغم من التجمعات التي تشكلت على أساس الأصول العائلية والقروية لتلك التجمعات، إلا أن هذا الوضع حطم الأسس التي تقوم عليها ثقافة اللاجئين. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان تمسك اللاجئين بعاداتهم وقيمهم جزءا من تمسكهم بحلمهم بالعودة. لكن الفقر وفقدان المسكن وشدة الحاجة أمور أوقعت على المرأة أعباء إضافية، تتمثل بمشاركتها بتوفير احتياجات العائلة مع خضوعها للعادات والتقاليد. لكن الواقع الجديد دفع المرأة إلى المشاركة السياسية، وحررها من العديد من القيود الاجتماعية. وعلى الرغم من تشجيع القوى السياسية لمشاركة المرأة الواسعة في النضال، إلا أن هذه القوى لم تعتمد برامج تتعلق بتحرر المرأة وتغيير النظرة لها بشكل جدي، الأمر الذي منع حدوث تحولات اجتماعية تواكب مشاركة المرأة وتضحيتها،[26] وذلك على الرغم من ظهور العديد من النساء اللواتي أصبحن رموزا للمرأة الفلسطينية الجديدة، مثل ليلى خالد ودلال المغربي والكثيرات غيرهن. إن استمرار وضع المرأة الاجتماعي خاضعا للعادات والتقاليد، التي تعاملهن بدونية، وتربطهن بشرف الرجل، أسس لتشكيل أطر نسائية تسعى لمحاربة هذه العادات، والارتقاء بوضع المرأة، من خلال تطوير البرامج الاجتماعية للقوى السياسية وحتى الأحزاب اليسارية منها،

[26] جيهان الحلو. **المرأة الفلسطينية المقاومة والتغيرات الاجتماعية**. (رام الله: مركز المرأة الفلسطينية للأبحاث والتوثيق، 2009). ص. 15.

لقد فشلت معظم القوى في تحقيق نقلة في نظرتها للمرأة لتهجر العديد من النساء مؤخرا أحزابهن السياسية. وتصل الأمور حتى الدعوة لتشكيل حزب نسائي.[27]

[27] إصلاح جاد. **الحركة النسائية الفلسطينية**. ص. 76.

الحركات الإسلامية ورمزية الحجاب

تمثّل الحجاب، الذي يعرف اليوم، بغطاء للرأس وجلباب يغطي الجسم حتى القدمين، وغالبا غطاء رأس أبيض وجلباب بلون داكن أو محايد. هذا هو الشكل الذي انتشر، والذي تعرف به المرأة الملتزمة بحزب أو جماعة دينية. عملت الجماعات الإسلامية السياسية التي تسعى إلى الوصول إلى الحكم طوال عقود على تعزيز صورة للمرأة المسلمة الملتزمة، وذلك من خلال وسائل تمكنت منها، مثل المساجد، والكتب التعليمية، والأندية والجمعيات الخيرية. الأمر الذي جعل الحجاب، بصورته الحالية، واسع الانتشار، ويحظى بشعبية واسعة، بينما النقاشات حول وجوبه تنحصر في الدوائر الفقهية مع عدم وجود دراسات جادة حوله.[28]

لقد لعبت المرأة في الأحزاب الإسلامية دورا خطيرا في نشر أفكار هذه الأحزاب، وفي ضم العديد من النساء إليها، وقد تم الاستفادة من الأفكار السائدة حول المرأة، وكذلك ضعف الأحزاب والقوى الليبرالية، وعجز أنظمة الحكم عن تقديم الحلول الاجتماعية والاقتصادية، في ظل فقر وبطالة منتشرين، خصوصا في أوساط النساء. وفي نفس الوقت، فإن الصدام مع الغرب الاستعماري، والصورة المتخيلة التي رسمت للمرأة الشرقية في الغرب، الصورة التي هدفت إلى تعزيز دونية المجتمعات الشرقية تمهيدا لاستعمارها.[29] في المقابل، فإن الأحزاب والقوى السياسية الإسلامية، وضعت الثقافة الغربية في مقدمة استهدافها، وجعلت الحجاب رمزا وعلامة سياسية وثقافية في مواجهة الغرب المستعمر الذي يسعى إلى تدميرالقيم الإسلامية. في نفس الوقت، صارت المرأة غير المحجبة رمزا لنجاح المستعمر في إفساد

---

[28] شيرين أبو النجا. **الحجاب بين المحلي والعولمي**. (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2008). ص. 12.

[29] المرجع السابق، ص. 14.

الهوية .[30] بالنسبة لهذه القوى، فإن الصراع بيننا وبين الغرب تتصدره القيم المرتبطة بالجنس، وتسويق هذه القيم على أنها هي الأخلاق، التي تميزنا عن انحلال الغرب، ليصبح لباس المرأة هو العلامة، ويصبح الحجاب رمزا مقدسا بصفته حامي عفة المرأة والدرع الواقي أمام الانحلال.[31]

لقد شكل شيخ الإسلام ابن تيمية مرجعا مقدسا للحركات السلفية المعاصرة، واعتبرت أحكامه وتفسيراته للقرآن وفهمه للسيرة النبوية والسنة صالحة لكل العصور. كانت نظرة ابن تيمية للمرأة يشوبها الكثير من التحامل، فقد اعتبرها أساسا لكل المفاسد والشرور. وقد اعتبر أن حجبها في البيت هو الأساس، وفي حال ظهورها عليها أن تخفي نفسها بلباسها. وبذلك يقول: ".. المرأة يجب أن تصان، ولهذا اختصت بالاحتجاب وترك التبرج، فيجب في حقها الاستتار باللباس والبيوت.. لأن ظهور النساء سبب الفتنة، والرجال قوامون عليهن."،[32] كما اعتبر ابن تيمية الشعر والغناء فسادا تجب محاربتهما. وبذلك يقول: "إن أقوى ما يهيج الفاحشة إنشاد الأشعار... ومقدماتها بالأصوات المطربة، وإن المغني إذا غنى حرك القلوب... وكما قال بعض السلف الغناء رقية الزنا".[33] وقد حارب ابن تيمية أيضا القصص الشعبية والسير التي كان يجتمع عليها الناس، وتقرأ لهم بواسطة الراوي، والتي شكلت فنا شعبيا أصيلا استمر بعده لقرون، واعتبرها مفاسد توجب على الحاكم معاقبة الرواة، وإحراق

---

[30] المرجع السابق، ص. 19.

[31] أحمد القابنجي. **المرأة المفاهيم والحقوق**. (بيروت: الانتشار العربي، 2009). ص. 148-149.

[32] أحمد بن تيمية. **مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**. جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم. (المدينة المنورة: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، 2004). ج 15، ص. 297.

[33] المرجع السابق، ص. 315.

الكتب التي يقرأون منها.[34] وفي سياق آخر، حرم ابن تيمية بناء المساجد على قبور الأنبياء وتقديس المقامات المنتشرة،[35] لتصبح أحكامه أسسا للحركات السلفية التي تصل حد تكفير من لا يطبق هذه الأحكام.

الإخوان المسلمون

تشكلت حركة الإخوان المسلمين في سنة 1928، وهناك إجماع على أن مؤسس الحركة هو حسن البنا. وفي كتابه "مذكرات الدعوة والداعية"، يقول حسن البنا أنه فكر في إنشاء جمعية دينية بسبب ما رآه من تحلل في القاهرة وبعد عن الأخلاق،[36] ويقول أيضا أن الإباحية انتشرت باسم التحرر. وكل ذلك بسبب انهيار الخلافة، والانقلاب الكمالي. وعليه، فإن فكرته تسعى إلى إعادة الخلافة.[37] في الفترة التي يتحدث عنها البنا، انتشرت الدعوات إلى السفور، وكذلك الدعوات إلى تحرر المرأة، خصوصا من قبل مجموعة من الذين تعلموا في الغرب، وذلك بالتوازي مع الدعوات إلى التحرر الوطني. وهذا يعني، بالضرورة، ربط التحرر الوطني بالتحرر الاجتماعي، الأمر الذي أفزع من يرغبون بعودة الخلافة. فكانت دعوة البنا هي الرد على دعاة التغريب، حسب رأيه. وقد وضع على رأس قائمته مسألة المرأة وربطها بالأخلاق في مقابل شعارات النهضة التي ركزت على تعليم المرأة وتحريرها من التقاليد البالية.[38] لقد

---

[34] المرجع السابق، ج 18، ص. 354.

[35] المرجع السابق،ج 15، ص. 154.

[36] حسن البنا. **مذكرات الدعوة والداعية**. (الكويت: آفاق للنشر والتوزيع، 2011). ص. 50.

[37] المرجع السابق. ص. 54.

[38] نصر حامد أبو زيد. **دوائر الخوف قراءة في خطاب المرأة**. ص. 179.

أسست رؤية حسن البنا لعقيدة الإخوان المسلمين. والعناوين التي سوف يرفعونها لعقود قادمة حول المرأة، ومحاربة الفساد والانحلال والاختلاط بين النساء والرجال في كل مجالات الحياة. ونرى في رسالته إلى الحكام العرب خطابا لا يزال سائدا عند الإخوان ومعظم الحركات الإسلامية السلفية، ولأهمية هذه الرسالة نورد بعض بنودها:

"تعويد الشعب احترام الآداب العامة، وتعزيز ذلك بقوة القانون، وتشديد العقوبات على الجرائم الأدبية-.

إقامة الحد على الزنا.

مقاومة التبرج والخلاعة... والتشديد خصوصا على المدرسات، والتلميذات، والطبيبات، والطالبات.

ضرورة التفريق بين مناهج تعليم البنات والصبيان.

منع الاختلاط بين الطلبة والطالبات... واعتبار أي خلوة جريمة.

إغلاق الصالات والمراقص.

مراقبة دور الليل وأفلام السينما، والتشديد في اختيار الروايات والأشرطة.

تهذيب الأغاني.

مصادرة الروايات المثيرة والمفسدة والصحف التي تنشر الفجور.

تنظيم المصايف والقضاء على الإباحية.

تحديد مواعيد فتح وإغلاق المقاهي...

تشكيل هيئات الحسبة لمحاسبة من يقوم بمخالفة تعاليم الإسلام...

التفكير بطرق لتوحيد الأزياء في الأمة تدريجيا..

القضاء على الروح الأجنبية ... في اللغة والعادات والأزياء.."[39]

لقد تحولت تعاليم حسن البنا إلى قوانين عند الإخوان، كما اكتسب هو أيضا صفة قدسية عندهم. فقد ذكر محمود عبد العليم، أحد قادة الإخوان الذين جاؤوا بعد البنا، أنه تعرف على الإخوان في العام 1935، وأن أكثر ما أثر فيه وثيقة تعهد لعضو الإخوان جاء في أحد بنودها: "أتعهد بأن أبث تعاليم الإسلام في أسرتي، ولا أدخل أبنائي أي مدرسة لا تحفظ عقائدهم وأخلاقهم، وأن أقاطع كل الصحف والنشرات والكتب والهيئات والفرق والأندية التي تناوئ تعاليم الإسلام."[40]

ويقول في وصفه لحسن البنا: "المرشد كان يعمل، ولا يجد وقتا للدراسة، حيث كان يهدف إلى دخول دار العلوم في القاهرة التي تحتاج إلى امتحان دخول، ولما لم يكن لديه الوقت للدراسة شكا إلى الله حاله، وفي أثناء نومه جاءه رجل وبيده كتاب المادة التي سيمتحن بها. وحفظ صفحات لتأتي أسئلة الامتحان نفس ما حفظه في الرؤيا".[41] كما يقول عن دافع حسن البنا في تأسيس الحركة هو الحركات التبشيرية التي تركز على عوز الفقراء وإغراء الشباب بالفتيات الأجنبيات.[42] وبذلك نرى أن البنا ارتكز في حركته على مهاجمة أخلاق المجتمع خصوصا ما يتعلق بالمرأة، معتبرا أنها الباب الذي يدخل منه الاستعمار للسيطرة على القيم بعد أن سيطر على البلاد.

---

[39] حسن البنا. **مذكرات الدعوة والداعية**. ص. 282- 284.

[40] محمود عبد الحليم. **الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ**. (الإسكندرية: دار الدعوة للنشر والتوزيع ط 5، 1994). ج 1، ص. 41.

[41] المرجع السابق، ص. 58.

[42] المرجع السابق، ص. 62.

لقد التزمت حركة الإخوان المسلمين بآراء حسن البنا. ومع دخول الحركة ساحة العمل السياسي لعبت النساء دورا مهما في نشر أفكار الحركة والدعوة لها، كما تميزت نساء الإخوان بالزي الذي دعا إليه حسن البنا والمسمى اليوم بالحجاب. وقد نشرت مئات النشرات والمقالات والكتب التي تصف هذا الزي، وتعدد فوائده ودوره في صيانة المرأة وحفظ كرامتها، وكان لهذا الزي دور مساعد في انتشار الحركة خصوصا في المجتمعات الريفية والمحافظة، وفي أوساط طلبة الجامعات. وعلى الرغم من الدور الهام الذي لعبته المرأة في انتشار حركة الإخوان المسلمين، إلا انها أقصيت من المراكز القيادية، واقتصر دورها على المشاركة في المظاهرات، والدعوة في أوساط النساء. على الرغم من صدور وثيقة عن الحركة، في العام 1994، تقبل مشاركة المرأة السياسية، وتحرم عليها فقط الإمامة الكبرى، إلا أن تمثيلها في الانتخابات النيابية المصرية التي جرت بعد ذلك (في العام 2005 والعام 2010) لم يكن فاعلا.[43] أما حركة الإخوان المسلمين في فلسطين، فقد أباحت للمرأة المشاركة في الانتخابات، كما دفعتها في عدة عمليات استشهادية، في تطور كان حكرا على القوى العلمانية واليسارية. ومع ذلك، لم تصل المرأة في حركة الإخوان المسلمين في فلسطين إلى أية مواقع في الصف الأول في قيادة الحركة، واقتصر دورها في أدبيات الحركة على المحافظة على الأخلاق بزيها الشرعي، ودورها في تربية الأجيال.[44]

---

[43] رتا فرج. **المرأة في الإسلام الحركي**. ص. 80.

[44] المرجع السابق، ص. 85.

توافقت هذه النظرة إلى المرأة مع نظرة المجتمعات التقليدية لها، بل وعززت قوة الحركة في مواجهة المكاسب التي حققتها الحركات النسوية، على شكل تشريعات وقوانين في عدة دول عربية، لنجد أن قوة التقاليد تمنع تطبيق التشريعات التي تأتي لصالح المرأة.[45]

الحركة الوهابية

ظهرت الحركة الوهابية في القرن الثامن عشر، وقد سميت بهذا الاسم نسبة لمؤسسها محمد بن عبد الوهاب. آمن مؤسس الحركة بأفكار ابن تيمية، وقد أعلن تمسكه بالكتاب والسنة، ورفضه للبدع. وقد اعتبر الفرق الصوفية المنتشرة في أرجاء الإمبراطورية العثمانية، خروجا عن الدين.[46] وقد وجد محمد بن عبد الوهاب ضالته في الأمير محمد بن سعود، وطالب من أتباعه مبايعته مبايعة أهل التوحيد، وتم التحالف بينهما سنة 1786. وبهذا التحالف، تم التأسيس للمملكة العربية السعودية.[47] وقد توارث آل سعود الحكم، وآل عبد الوهاب المسؤوليات الدينية، وقد اعتبروا الملك من آل سعود إماما للمسلمين.[48] وقد خاض آل سعود معارك قبلية كثيرة وصولا إلى السيطرة على الجزيرة العربية. وفي رسالة من عبد العزيز آل سعود إلى إحدى القبائل ورد التالي: "من عبد العزيز... إلى قبيلة سلام، واجبكم يدعوكم إلى الإيمان بالكتاب الذي أرسل لكم. لا تكونوا وثنيين كالأتراك الذين يشركون بالله. إذا آمنتم

---

[45] قضايا المرأة العربية، مجموعة مؤلفين، المرأة العربية والتحدي المعاصر، نهى بيومي، (دمشق: 2008). ص. 226.

[46] ياسين بن علي. **خروج الوهابية على الخلافة العثمانية**. مجلة الزيتونة، ص. 11. www.azaytona.net.

[47] المرجع السابق، ص. 32.

[48] المرجع السابق، ص. 27.

نجوتم، وإلا سنقاتلكم حتى الموت".[49] نرى بوضوح في هذه الدعوة تكفيرا للقبائل، فهي ليست مدعوة لمبايعة عبد العزيز بل بالعودة للإسلام. إن الحديث عن تاريخ الوهابية المندمج بتاريخ المملكة السعودية يساعدنا في بناء فهم لطبيعة الوهابية الفكرية والسياسية التي بنيت على أساسها المملكة السعودية. وهي الدولة التي تحكم وفق المبادئ الوهابية باعتبارها الإسلام الصحيح. وهي أيضا الدولة التي تملك ثروات هائلة ساعدتها على نشر الوهابية، من خلال امتلاكها لكم كبير من وسائل الإعلام، ومبادرتها لنشر كتب وتوزيعها في كل أنحاء العالم، وكذلك تشغيلها مئات الدعاة ورجال الدين، الذين يتصدون للفتوى في كل جوانب حياة المسلمين. كما يفرضون نمطا محددا لحياة الناس في المملكة السعودية، مستندين إلى قوانين تلتزم بها الدولة، ولتصبح افكار ابن تيمية، خصوصا ما يتعلق بالمرأة، هي مرجعية الحكم. فنظرة ابن تيمية واضحة للمرأة، "المرأة يجب أن تصان، ولهذا اختصت بالاحتجاب وترك الزينة وترك التبرج، فيجب عليها الاستتار باللباس والبيوت... لأن ظهور النساء يسبب الفتنة، والرجال قوامون عليهن".[50]

في المملكة لا يجوز للرجل أن يرى المرأة الغريبة عنه مكشوفة الوجه، ولا يجوز له الخلوة بها، ولا يجوز التعليم المختلط، والمرأة لا تكشف وجهها حتى في المحاكم. تعليم البنات يهدف، في الأساس، إلى تحضيرهن ليصبحن زوجات صالحات. وبقيت مدارس البنات لا تتبع لوزارة التربية حتى العام 2002، فقد كان يشرف على مدارس البنات مؤسسة تسمى رئاسة تعليم البنات، وهذه المؤسسة يشرف عليها بعض علماء الدين. لقد أنهت حادثة أليمة

---

[49] المرجع السابق، ص. 142.

[50] ابن تيمية، مرجع سابق، ج 15، ص. 297.

وجود هذه المؤسسة عندما احترقت عدة فتيات داخل المدرسة بعد أن شب حريق فيها، ومنعت الفتيات من قبل هيئة الأمر بالمعروف من الخروج منها وهن غير محجبات.[51]

لقد تحدث نصر حامد أبو زيد عن مبدأ فقهي قديم، يرتكز عليه الخطاب السلفي الحديث وهو "درء المفاسد مقدم على جلب المصالح"، ونحن نرى كيف يعتبر الوهابيون فتنة المرأة من أكثر المفاسد خطرا على المجتمع الإسلامي، وعليه، فإن درء خطرها مقدم على أي حق يمكن أن تطالب به، أو أي خطر يكون في تجنبه تعريض مجتمع الرجال للفتنة.[52]

وعلى الرغم من زيادة الضغوط على النظام السعودي من أجل محاربة التشدد، إلا أن المرأة، حتى يومنا هذا، تعاني من سيطرة مؤسسات دينية قوية، لها حق مكتسب في التحكم بحياة الناس، وخصوصا ما يتعلق بالمرأة خارج منزلها. لقد ظهرت نساء حاولن المطالبة ببعض الحقوق، مثل حق المرأة في قيادة السيارة، وقد قمن بتنظيم أنفسهن ونشر أفكارهن، خصوصا في فترة سياسية حرجة. ففي حرب الخليج الأولى 1990، تدفق إلى السعودية آلاف الجنود الأجانب، وكان بصحبتهم العديد من المجندات، اللاتي يمارسن حياتهن كلها علنا، ويحملن السلاح، ويقدن السيارات. فخرجت أربع وسبعون امرأة يقدن سيارات في تظاهرة في مدينة الرياض، وانتشر، في ذلك الوقت، أنهن قد تلقين التشجيع من أمير الرياض، وهو أحد أفراد الأسرة المالكة، وقد كان معظمهن يحملن الشهادات العليا، وتلقين تعليمهن في الولايات المتحدة أو أوروبا. وكنتيجة لهذا الفعل أمضين ليلة في السجن، وتم وقفهن عن عملهن. وفي النتيجة، فإن منع قيادة النساء للسيارات بعد أن كان عرفا اجتماعيا، أصبح محرما بفتوى من

---

[51] أميلي لورو نار. **النساء والفضاءات العاملة في المملكة العربية السعودية**. أشرف على الترجمة عبد الحق الزموري. (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2013). ص. 99.

[52] نصر حامد أبو زيد. **دوائر الخوف قراءة في خطاب المرأة**. ص. 63.

مفتي المملكة آنذاك الشيخ ابن باز، وذلك درءا للمفاسد، وحفاظا على الأخلاق العامة.[53] وتنقل المرأة في المملكة مسألة صعبة، فمن العار على المرأة السعودية أن تستعمل سيارات الأجرة. وتنقلها يقتصر على سيارة العائلة التي يقودها أحد المحارم من الذكور. ومع أن الكثير من العائلات تشغل سائقا خاصا، إلا أن المرأة لا تستطيع، في أغلب الأحيان، أن تستخدمه منفردة في تنقلها. إن تنقل المرأة العاملة السعودية مسألة معقدة ومكلفة في الوقت نفسه، لا تقدر عليها الفقيرات اللاتي يستخدمن في بعض الأحيان سيارات الأجرة، لكن ذلك قد يعرضهن للفضيحة، خصوصا إذا تم إيقاف السيارة من قبل هيئة الأمر بالمعروف، واكتشفوا أن امرأة سعودية تستقل سيارة الأجرة، ذلك، بالتأكيد سوف يعرضها للمساءلة واستدعاء ولي أمرها، بالإضافة إلى ما سيصاحب ذلك من فضائح.[54]

لقد شهدت الحياة في المملكة السعودية، في العقود الأخيرة، تغييرات قادتها الطفرة النفطية، لتصبح المدن مكتظة بالعمارات والأسواق التجارية على النمط الغربي "المولات"، وما يصاحب ذلك من قيم استهلاكية، ومطاردة آخر ما ابتكر من أزياء، وقصات شعر، وعادات. لكن حماة الفكر الوهابي كانوا قادرين دائما على إثبات سطوتهم. ففي التجمعات التجارية التي تؤمها النساء، خصوصا في نهاية الأسبوع، يمنع الشباب مثلا من دخولها إذا لم يكونوا بصحبة نساء من عائلاتهم. وقد يتعرض الشاب الذي يحاول تجاوز هذا المنع غير المكتوب للضرب والسجن.[55]

---

[53] اميلي لورو، ص. 126.

[54] المرجع السابق، ص. 216.

[55] المرجع السابق، ص. 350.

ومع أن الفكر السلفي قد ساد، خصوصا عند الحركات السياسية الدينية مثل الإخوان المسلمين والحركة الوهابية، هناك من امتلك رأيا آخر، خصوصا في ما يتعلق بتفسير النصوص والتلقي من السلف، مثل حسن الترابي، المفكر السوداني الذي اشتغل بالسياسة، وأسس أحزابا، وشارك في الحكم. فالترابي له بعض الآراء المغايرة للتيار السلفي السائد، خصوصا ما يتعلق بالمرأة. وكذلك محمد شحرور الذي ذهب بعيدا في تفسيراته المغايرة للمألوف.

أفكار حسن الترابي مؤسس الجبهة الإسلامية القومية في السودان

يرى الترابي أن الرجل لا يتميز عن المرأة بشيء، إلا أن هناك بعض الأمور التي تجب على الرجل وتجوز للمرأة مثل الجهاد.[56] ويرى أنه لا فصل بين الرجال والنساء في الدين، فالمرأة تستطيع استقبال الضيوف في بيتها، وتشارك في التجمعات العامة مثل الصلاة واحتفالات الأعياد، ويجوز أن يكون هناك حديث بين الرجل والمرأة يعتزلان فيه الناس، لكنهما يبقيان في مجال النظر، كما يجوز اجتماع الأسر نساء ورجالا ومجالستهم بعضهم البعض. وما لا يجوز، بالنسبة له، هو الخلوة بين الرجل والمرأة. ولكن الترابي لا يفلت من مسألة الفتنة بين الرجل والمرأة، وإن اعتبرها شخصية، ولا يجوز بسبب هذه الذريعة أن تمنع المرأة من الاشتراك في الحياة العامة.[57]

---

[56] حسن الترابي. **المرأة بين الأصول والتقاليد**. (الخرطوم: مركز دراسات المرأة، 2000). ص. 11.

[57] المرجع السابق، ص. 17-19.

ويرى الترابي أن هناك حجة فقهية تم استغلالها ضد النساء، وهي باب سد الذرائع، ففرضت عليهن قيود جائرة خشية الفتنة، وصولا إلى جعل ظهورهن عورة، وحتى صوتهن. كما يرى الترابي أن حبس المرأة ومنعها من الخروج من البيت شرع فقط كعقوبة على الفاحشة.[58] وقد وصل الأمر إلى تغيير معظم الأحكام المتصلة بالمرأة، فحرمت المرأة من اختيار الزوج، أو طلب الطلاق، كما حرمت من التصرف بأموالها، وحرمت من المشاركة في الحياة العامة. وهي أمور حق لها، ولا يجوز من الناحية الدينية حرمانها منها.[59]

يرى الترابي ضرورة الإصلاح فيما يتعلق بالمرأة، لأن الثورة على الأوضاع التقليدية قادمة لا محالة. ولذلك، على المسلمين أن يقودوا هم النهضة، كي لا تخرج الأمور من أيديهم.[60] ويرى الترابي أن ما أجازه الرسول في حياته لا يصح للمسلمين أن يمنعوه، وقد أورد قصة لعبد الله بن عمر مع ولده عندما روى حديثا للرسول يقول فيه: "لا تمنعوا النساء من الخروج إلى المساجد بالليل"، فقال ابنه: "لا ندعهن يخرجن فيتخذنه دغلا"، فغضب ابن عمر، وقال له: "أقول قال رسول الله وتقول لا ندعهن".[61]

محمد شحرور والتجديد الثوري

يرتكز محمد شحرور في فلسفته لتفسير النص على ضرورة فهم محدث ومغاير، ويركز على ضرورة الاعتماد على العقل في التفسير، كما يعتمد في أحكامه على القرآن مع رفضه لفكرة

---

[58] المرجع السابق، ص. 22.

[59] المرجع السابق، ص. 21.

[60] المرجع السابق، ص. 24.

[61] المرجع السابق، ص. 11.

النسخ، لأن الآيات غير صحيحة بأحكامها، والتي توجب نسخها لا يمكن أن تكون موجودة في القرآن.[62] ويرفض الاعتماد على أسباب النزول كوسيلة تساعد على تفسير القرآن. وقد اعتبر أن وجود أسباب محددة لنزول آيات القرآن ينفي صلاحيته لكل زمان ومكان لارتباطه بحدث معين وواقعة بعينها تفسر النص.[63]

وبالنسبة لما يتعلق بالمرأة، يرى شحرور ضرورة إعادة قراءة الآيات المتعلقة بالإرث والقوامة، وتفسيرها بشكل مختلف عن التفسير السلفي، خصوصا أن المرأة المعاصرة أثبتت نديتها في مختلف المجالات، من مهن وعلوم.[64] كما يرى أن اللباس عند المرأة ليس تكليفا شرعيا، بل هو سلوك اجتماعي وبيئي، يتغير بتغيرهما. فلباس الحرة يختلف عن لباس الأمة.[65] ويرى شحرور أن تحديد لباس ساتر للمرأة الحرة ليس له علاقة بالفتنة، بل هو دلالة على المكانة الاجتماعية، وإلا كان ستر الإماء أولى لجمالهن ومهارتهن في الإغواء.[66] ويصل شحرور إلى استنتاج جريء يقوم على حق المرأة في الخروج والعمل، ويحدد ما يجب عليها أن تخفيه بثيابها بالجيوب كما ورد في الآية (31) من سورة النور "... وليضربن بخمرهن على جيوبهن..."، والجيوب، حسب شحرور، هي " الفرج والإليتين وما بين الثديين وما تحتهما وما تحت الإبطين".[67] وهذا هو الحد الأدنى الذي يفرض على المرأة تغطيته، ما يزيد عن ذلك هو من الأعراف الاجتماعية والضرورات البيئية.

---

[62] محمد شحرور. **نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي**. (دمشق: الأهالي للطباعة والنشر، 2000). ص. 83.

[63] المرجع السابق، ص. 93.

[64] المرجع السابق، ص. 316.

[65] المرجع السابق، ص. 355.

[66] المرجع السابق، ص. 359.

[67] المرجع السابق، ص. 364.

الخاتمة

قام هذا البحث، من خلال دراسة ملخصة، بتوضيح لمسألة الحجاب، التي أثيرت بعد أول محاولة للمرأة المسلمة في المشاركة في الحياة السياسية، وخصوصا بعد وفاة الرسول.

لقد قدم البحث دراسة في النصوص القرآنية التي تحدثت عن المرأة، وبين الإمكانات التي تحملها هذه النصوص في طرح صورة مغايرة للمرأة العربية المسلمة عن الصورة السائدة اليوم. فهناك حقوق مضمونة للمرأة في العمل، وفي المشاركة الدينية والسياسية. ثم قام البحث بتدعيم فكرته من خلال صور للنساء في بداية الدعوة، وفي حياة الرسول ليبين أن احتجاب المرأة لم يكن مطروحا في ذلك الوقت، فهي تشارك في الدعوة إلى الدين، وتشارك في المعارك الأولى، وتشارك في صلاة الجماعة في المسجد في مختلف أوقات الصلاة. وحتى زوجات الرسول، اللواتي فرض عليهن الحجاب، كسلوك يومي، يخرجن إلى الحياة العامة عندما يتطلب الأمر، بل ويقدن المعارك كما فعلت عائشة عندما قادت حربا ضد علي بن أبي طالب في معركة الجمل، ولم تكن وحدها في ذلك، فقد أرادت زوجته حفصة بنت عمر بن الخطاب المشاركة أيضا، لولا منع عبد الله بن عمر لها.

كما قام البحث بدارسة التحولات التي ادت إلى عزل المرأة الحرة وحجبها، رابطا ذلك بطبيعة الدولة العسكرية، الأمر الذي رفع قيمة الرجل المحارب الفاتح. ومنحه الحق بامتلاك الأسيرات كرقيق جنسي. لتصبح النساء المملوكات بأعداء كبيرة خصوصا أن المعارك لم تعد مجرد غزوات قبلية كما كان شائع قبل الإسلام لكن هذه العادة القديمة رسخت كحق للمقاتل بعد الإسلام. وقد انتشرت ظاهرة الإماء لدى الطبقات العليا الذين استطاعوا امتلاك الإماء

بالشراء وليس فقط كأسيرات حرب. كما رصد تطور قيمة الإماء المتعلمات والمتخصصات بامتاع الرجال، وتوسع ثقافتهن، وقدرتهن في كثير من الأحيان على التأثير حتى في المسائل السياسية. كل ذلك ترافق مع تدني مكانة المرأة وتراجع قيمتها الاجتماعية.

يقترح البحث، نظرة جديدة للمرأة العربية، تصبح فيها هي المقررة لمصيرها، من خلال أهليتها الكاملة المقرة بالنصوص وبالممارسة التاريخية. كما يبين الفرق بين الديني والاجتماعي في ما يتعلق بلباس المرأة. ويوضح أن مسألة الحجاب المعاصرة تحمل موروثا مرتبطا بالعادات والتقاليد، ودوافع سياسية معاصرة تسعى للمحافظة على القديم في وجه التغيير، كما سعى البحث إلى إثبات حق المرأة في القرار بشكل ظهورها باعتباره أمرا شخصيا لا تترصده الأحكام المسبقة.

إن وضع المرأة العربية المسلمة المعاصرة يبرر بالرواية التاريخية السائدة، التي تجعل من جسد المرأة مصدرا للفتنة، وعدوا للرجل يقوده إلى نار جهنم. ومن أجل الهروب من هذه الفتنة، يجب حجب هذا الجسد وراء أسوار حجرية أو قماشية سميت بالحجاب. ثم أصبح هذا الحجاب رمزا يميز المرأة المسلمة، ويفرض عليها نمطا محددا لسلوكها، ويكبح محاولتها للتطور. كما يبين البحث كيف تؤثر موروثات العصور السالفة، التي صارت فيها المرأة مجرد أداة للمتعة يملكها الرجل وبأعداد كبيرة من خلال السبي أو الشراء، وكيف أثر الانتشار الواسع للإماء على الثقافة الشعبية التي تجعل من الجنس الشكل الوحيد للعلاقة بين الرجل والمرأة.

إن وضع المرأة العربية المعاصرة لا يختلف كثيرا عن وضع المجتمعات العربية التي يسود فيها التخلف، وتحكمها المصالح الاستعمارية، من خلال أنظمة ترفع لواء المحافظة على الأخلاق الإسلامية في وجه التغريب، وتضع في مركز هذه المحافظة كل ما يتعلق بالمرأة كمقياس للأخلاق. كما تصبح الديمقراطية عدوا للإسلام. فمن خلال الديمقراطية، تطالب المرأة بحقها في التحكم بمصيرها وبزيها وبجسدها. وتصبح مطالبتها بالمساواة مع الرجل رديفا لرغبتها بتقليد النساء الغربيات المنحلات. ويصبح الرجل الذي يدعم حق المرأة عدوا للنظام الذي يحافظ على الأخلاق. إن مصلحة الاستعمار تكمن في منع المجتمعات العربية من التحول إلى مجتمعات إنتاجية، حتى تستمر عملية النهب التي تتعرض لها مقدرات هذه المجتمعات. وفي ظل مجتمعات استهلاكية، يصبح حجب المرأة عن المشاركة في الحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية، مسألة تخفف من أزمة الأنظمة العاجزة عن توفير العمل المنتج لجيوش من العاطلين عن العمل. وفي ذلك، تلتقي مصلحة الأنظمة السياسية العربية مع مصلحة الدول الاستعمارية الغربية في المحافظة على الوضع المتخلف للمرأة والمجتمعات العربية.

المراجع والمصادر

1. القرآن

2. العهد القديم

3. العهد الجديد

4. ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن الشيباني. **الكامل في التاريخ**. المجلد5. بيروت: دار الكتب العلمية، 1987.

5. ابن أنس، أبو عبد الله مالك بن أنس. **موطأ مالك**. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. بدون مدينة نشر، مصطفى البابي الحلبي، 1985.

6. ابن تيمية، أحمد بن عبد السلام بن تيمية. **مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**. الجزء 15. جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم. المدينة المنورة: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، 2004.

7. ---------- ابن تيمية. **تفسير سورة النور**، تحقيق صلاح عزام. الرابط: http://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=177197

8. ابن الجوزي، أبو الفرج أحمد بن عبد الرحمن. **أخبار النساء**. تحقيق بهاء عبد الكريم. بيروت: دار النديم للطباعة والنشر، 1991.

9. ابن حجاج، مسلم بن الحجاج بن مسلم. **صحيح مسلم**. الرياض: دار طيبة، 2006.

10. ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي. **رسائل ابن حزم الأندلسي**. تحقيق إحسان عباس. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1987.

11. ابن الساعي، تاج الدين أبي طالب بن أنجب. **جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء**. تحقيق: مصطفى جواد. دار المعارف بمصر.

12. ابن سلام، أبو عبيد القاسم بن سلام بن عبيد الله. **كتاب الإيمان**. تحقيق محمد ناصر الدين الألباني. الرياض: مكتبة دار المعارف للنشر والتوزيع، 2000.

13. ابن علي، ياسين. "خروج الوهابية على الخلافة العثمانية". مجلة **الزيتونة**. www.azaytona.net.

14. ابن قتيبة، ابي محمد عبد الله بن مسلم. **الإمامة والسياسة**. القاهرة: مطبعة النيل، 1904.

15. ابن كثير،إسماعيل بن عمر بن كثير. **تفسير القرآن العظيم**. تحقيق سامي بن محمد السلامة. الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999.

16. ابن منظور، محمد بن مكرم. **لسان العرب**. بيروت: دار صادر، 2003.

17. ----------. **الفصول في سيرة الرسول**. تحقيق: محمد العبد. دمشق، المدينة المنورة: مكتبة علوم القرآن، مكتبة التراث، بدون تاريخ نشر.

18. ابن هشام، أبو محمد بن عبد الملك بن هشام. **السيرة النبوية**. تحقيق: مصطفى السقا. بيروت: دار المعرفة، بدون تاريخ نشر.

19. أبو داود، سليمان بن الأشعث. **سنن أبو داود**. بيروت: دار الرسالة العالمية،2009.

20. أبو دية، أيوب. **الحجاب في التاريخ**. بيروت: دار الفارابي، 2012.

21. أبو زيد، نصر حامد. **دوائر الخوف قراءة في خطاب المرأة**. الدار البيضاء، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط4،2007.

22. أبو شقة، عبد الحليم. **تحرير المرأة في عصر الرسالة**. الكويت:دار القلم للنشر والتوزيع، ط5، 1999.

23. أبو العينين، سعيد. **حكايات الجواري في قصور الخلفاء**. القاهرة: دار أخبار اليوم، 1998.

24. أبو النجا، شيرين، **الحجاب بين المحلي والعولمي**. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2008.

25. الأندلسي، أحمد بن عبد ربه. **العقد الفريد**. تحقيق: عبد المجيد الترجيني. بيروت: دار الكتب العلمية، 1983.

26. أمين، قاسم. **تحرير المرأة**. القاهرة: مكتبة الترقي، 1899.

27. البخاري، ابو عبد الله محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**. دمشق، بيروت: دار بن كثير، 2002.

28. بدران، مارجو. **رائدات الحركة النسوية المصرية والإسلام والوطن**. ترجمة علي بدران. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2001.

29. بغا، مصطفى نور الدين مستو. **الواضح في علوم القرآن**. دار العلوم الانسانية، دار الكلم الطيب، ط2، 1998.

30. البنا، حسن. **مذكرات الدعوة والداعية**. الكويت: آفاق للنشر والتوزيع، 2011.

31. بهيم، محمد. **المرأة في حضارة العرب**. دار النشر للجامعيين، 1962.

32. بيومي، نهى. "المرأة العربية والتحدي المعاصر". **قضايا المرأة المعاصرة**. دمشق: 2008.

33. الترابي، حسن. **المرأة بين الأصول والتقاليد**. الخرطوم: مركز دراسات المرأة، 2000.

34. الترماني، عبد السلام. **الزواج عند العرب**. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1998.

35. التميمي، سيف بن عمر. **الردة والفتوح وكتاب الجمل ومسيرة عائشة وعلي**. تحقيق: قاسم السامرائي. الرياض: دار أمية للطباعة والنشر والتوزيع، 1997.

36. التميمي، محمد بن أحمد. **كتاب المحن**. تحقيق: يحيى وهيب الجبوري. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2006.

37. التميمي، يحيى بن إبي الخير اليمني. **البيان في مذهب الشافعي**. تحقيق قاسم محمد النوري. بيروت: دار المنهاج، 2000.

38. جاد، إصلاح "الحركة النسائية الفلسطينية". **الأطر النسوية والمنظمات النسوية غير الحكومية: وقائع المؤتمر السنوي الخامس لمؤسسة مواطن** 17-18 كانون أول 1999.

39. الجاحظ، عمرو بن بحر. **رسائل الجاحظ**. بيروت: دار ومكتبة الهلال، 2002.

40. الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن برهان الدين. **عجائب الآثار في تراجم الأخبار**. القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012.

41. الجبوري، يحيى وهيب. **النساء الحاكمات من الجواري والملكات**. عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2010.

42. حسن، سلاف فضل الله. **دور الجواري والقهرمانات في دار الخلافة العباسية**. دمشق: صفحات للدراسات والنشر، 2013.

43. الحلو، جيهان. **المرأة الفلسطينية المقاومة والتغيرات الاجتماعية**. رام الله: مركز المرأة الفلسطينية للأبحاث والتوثيق، 2009.

44. الدشتي، علي. **23 عاما دراسة في السيرة المحمدية**. ترجمة ثائر ذياب. دمشق: بترا للنشر والتوزيع، 2004.

45. السعداوي، نوال. **المرأة والجنس**. الإسكندرية: دار ومطابع المستقبل، 1990.

46. سواح، فراس. **مغامرة العقل الأولى**. دمشق: دار علاء الدين، 2007.

47. --------. **جلجامش**. دار علاء الدين، ط2002،2.

48. السيوطي، عبد الرحمن بن كمال الدين السيوطي. **الأترج في رقائق الغنج**. تحقيق محمد سيد الرفاعي. دمشق: دار الكتاب العربي.

49. ---------. **تاريخ الخلفاء**. بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، 2003.

50. الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس. **الأم**. دار المعرفة: بيروت، 1995.

51. الشافعي، أبو الحسن اليمني. **البيان في مذهب الإمام الشافعي**. دار المناهج للطباعة والنشر والتوزيع.

52. شحرور، محمد. **الكتاب والقرآن قراءة معاصرة**. دمشق:الأهالي للتوزيع والنشر، ط6، 1994.

53. شحرور، هبة. **المرأة والعمل السياسي رؤية إسلامية**. رام الله: مركز بيت المقدس للأدب، 2006 .

54. ---------. **نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي**. دمشق: الأهالي للطباعة والنشر، 2000.

55. شعبان، بثينة. **المرأة العربية في القرن العشرين**. دمشق: دار مدى للثقافة والنشر، 2000.

56. الشوربجي، منار. **الديمقراطية وحقوق المرأة بين النظرية والتطبيق**. رام الله: مواطن، 1996.

57. شوفاني، الياس. **حروب الردة**. بيروت: دار الكنوز الأدبية، 1995.

58. الصابي، أبي الحسن بن الحسن. **الوزراء**. تحقيق: عبد الستار أحمد فراج. مكتبة الأعيان.

59. الصلابي، علي محمد. **الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط**. بيروت: مكتبة حسن العصرية للطباعة والنشر والتوزيع، 2010.

60. ---------. **غزوات الرسول**. القاهرة: مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، 2007.

61. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. **تاريخ الأمم والملوك**. مراجعة نواف الجراح. بيروت: دار صادر، 2003.

62. ---------. **تفسير الطبري**. تحقيق بشار معروف، عصام الحرستاني. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1994.

63. عبد الحليم، محمود. **الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ**. الإسكندرية: دار الدعوة للنشر والتوزيع ط. 5، 1994.

64. عبد الرحمن، عائشة. **تراجم سيدات بيت النبوة**. القاهرة: درا الريان للتراث، 1987.

65. عبد الوهاب، أحمد. **تعدد نساء الأنبياء ومكانة المرأة**. القاهرة: مكتبة وهبة، 1989.

66. العثيمين، محمد بن صالح. تسجيل صوتي على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=ai5ZR6NuiPg

67. العقاد، عباس محمود. **مجموعة العبقريات الإسلامية**. بيروت: المكتبة العصرية، 2008.

68. علقم، نبيل. **تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية ودور المرأة فيها**. رام الله: جمعية إنعاش الأسرة، 2005.

69. العلي، جواد. **في تاريخ العرب قبل الإسلام**. بغداد: جامعة بغداد، 1993.

70. عمران، محمود سعيد. **حضارة اوروبا في العصور الوسطى**. السويس: دار المعرفة الجامعية، 1998.

71. عوض، لويس. **الثورة الفرنسية**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992.

72. فرج، ريتا. "المرأة في الإسلام الحركي". **النسوية الإسلامية**. مجموعة باحثين. دبي: مركز المسبار للدراسات والبحوث، 2012.

73. فضل الله، مريم نور الدين. **المرأة في ظل الإسلام**. بيروت: دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع.

74. القابنجي، أحمد. **المرأة المفاهيم والحقوق**. بيروت: الانتشار العربي، 2009.

75. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد. **الجامع في أحكام القرآن**. القاهرة: دار الكتب المصرية.

76. الكلبي، هشام بن السائب. **كتاب الأصنام**. تحقيق: أحمد زكي باشا. القاهرة: دار الكتب المصرية، 1995.

77. لورونار، إملي. **النساء والفضاءات العاملة في المملكة العربية السعودية**. اشرف على الترجمة عبد الحق الزموري. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2013.

78. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري. **الأحكام السلطانية**. تحقيق احمد البغدادي. الكويت: مكتبة ابن قتيبة، 1989.

79. ..... . **تفسير الماوردي**. بيروت: دار الكتب العلمية، مؤسسة الكتب الثقافية.

80. المرنيسي، فاطمة. **ما وراء الحجاب**. الدار البيضاء: المركز العربي، 2007.

81. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي. **مروج الذهب ومعادن الجوهر**. بيروت: المكتبة العصرية، 2005.